بسم الله الرحمن الرحيم

شـــرح

القــواعـد الأربــع

للإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله

بقلم
سليمان بن محمد اللهيميد
السعودية – رفحاء

تفضل بزيارة موقعي – مجلة رياض المتقين
www.almotaqeen.net
القناة العلمية على التلجرام
https://t.me/aloheemeed

م / بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ .

==========

ابتدأ المؤلف رحمه الله كتابه بالبسملة :

اقتداءً بالكتاب العزيز ،:

وتأسياً بالنبي ﷺ في مكاتباته ومراسلاته ، كما في كتابه عليه السلام إلى هرقل وفيه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد بن عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ...) . رواه البخاري ومسلم .

ولحديث (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر) .

(**الله**) علم على ذاته تبارك وتعالى، وكل الأسماء الحسنة تضاف إليه .

كما قال تعالى (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى).

وقال ﷺ (إن لله تسعةً وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة) متفق عليه.

ولذلك تقول: الرحمن من أسماء الله، ولا تقول الله من أسماء الرحمن.

ومعنى (الله) أي: المألوه المعبود الذي تعبده الخلائق، وتتأله له محبة وتعظيماً وخضوعاً له، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب، لما له من صفات الألوهية، وهي صفات الكمال.

(الله) لا يعرف أحد تسمى به لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو مختص بالله لفظاً ومعنى.

لفظاً: أي أن هذا اللفظ لا يصح أن يسمى به أحد.

ومعنى: أي أن الصفة التي تضمنها هذا الاسم وهي الإلهية لا يصلح شيء منها للمخلوق.

قال بعض العلماء: إنه الاسم الأعظم.

لأنه يوصف بجميع الصفات، هذا دليل نظري على أن لفظ الجلالة (الله) هو الاسم الأعظم، أي أن هذه الأسماء جميعاً ترجع إليه لفظاً ومعنى.

معنى ترجع إليه لفظاً: أي أن أسماء الله تأتي بعده ولا يأتي بعد شيء منها كما سبق في الآيات والأحاديث.

ومعنى ترجع إليه معنىً: أي أن هذا الاسم يتضمن صفة الإلهية وهي أوسع الصفات، وهذه الصفة ترجع إليها جميع الصفات.

وقد اختلف العلماء ما هو الاسم الأعظم الذي ورد فيه الحديث (لقد سأل الله باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أعطى).

القول الأول: هو الله.

للعلة التي سبقت وهي أن جميع الأسماء ترجع إليه.

ولأنه الاسم الذي تكرر في الأحاديث الواردة ومنها: أن رجلاً قال (اللهم إني أسألك أني أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد فقال ﷺ: لقد سألت الله بالاسم الذي إذا سئل به أعطى) رواه أبو داود.

وكحديث أنس قال (كنت جالساً مع النبي ﷺ في المسجد ورجل يصلي فقال: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت المنان بديع السموات ... فقال رسول الله ﷺ: دعا الله باسمه الأعظم الذي إذا دعي به أجاب) رواه أبو داود.

ولأن هذا الاسم ما أطلق على غير الله.

القول الثاني: إن اسم الله الأعظم: الحي القيوم.

واستدل لهذا القول ببعض الأحاديث التي فيها مقال مثل حديث (اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم وفاتحة آل عمران (ألم الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وهما عند أبي داود.

وهذان القولان أقوى الأقوال، والأول أقوى من الثاني.

قوله (الله) اختلف هل هو مشتق أم غير مشتق والراجح أنه مشتق.

قال الشيخ حافظ حكمي رحمه الله: واختلفوا في اشتقاقه على أقوال أقواها أنه مشتق من أله يأله إلاهة، فأصل الاسم الإله، ومن أقوى الأدلة عليه قوله تعالى (وهو الله في السماوات وفي الأرض) مع قوله عز وجل (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) ومعناه ذو الألوهية التي لا تنبغي إلا له.

فائدة:

الأسماء المشتقة أبلغ من الأسماء الجامدة، لأن الأسماء المشتقة تتضمن أوصافاً، بخلاف الأسماء الجامدة، فكل أسماء الله مشتقة.

(**الرحمن الرحيم**) اسمان مشتقان من الرحمة على وجه المبالغة، والرحمن أشد مبالغة من الرحيم.

لكن ما الفرق بينهما:

قيل: الرحمن: ذو الرحمة الشاملة لجميع الخلائق في الدنيا وللمؤمنين في الآخرة، والرحيم ذو الرحمة الخاصة للمؤمنين يوم القيامة.

واستدلوا بقوله تعالى (وكان بالمؤمنين رحيماً).

وقيل: الرحمن يدل على الصفة العائدة على الله من الرحمة، والرحيم يدل على تعلقها بالمرحوم، فالرحمن دال على أن الرحمة صفته، والرحيم دال على أنه يرحم خلقه برحمته، وهذا أصح وهو اختيار ابن القيم.

إذن: الرحمن تدل على الوصف، والرحيم تدل على الفعل، أي: على أنه يرحم.

ومما يضعف القول الأول قوله تعالى (إن الله بالناس لرؤوف رحيم).

- ... (الرحمن) على وزن فعلان، وهو ذو الرحمة الواسعة. (والرحيم) الموصل رحمته لمن يشاء من عباده.
- ... (الرحمن) مختص بالله لا يسمى به غيره ولا يعرف أحد تسمى به .

قال ابن كثير: ولما تجهرم مسيلمة الكذاب وتسمى برحمن اليمامة كساه الله جلباب الكذب وشهر به فلا يقال إلا مسيلمة الكذاب فصار يضرب به المثل في الكذب.

- والفرق بين الرحمن والله: الله مختص بالله لفظاً ومعنى، وأما الرحمن مختص بالله لفظاً لا معنى، فإن المخلوق يوصف بالرحمة.

وقد قسّم العلماء رحمهم الله الرحمة إلى قسمين: عامة – وخاصة.

فأما العامة: فهي الشاملة لجميع الخلق (المؤمن والكافر والبر والفاجر)، فكل الخلق تحت رحمة الله عز وجل.

وأما الرحمة الخاصة: فهي التي تختص بالمؤمنين.

والفرق بينهما: أن الرحمة الخاصة تتصل برحمة الآخرة، فيكون لله على المؤمنين رحمة في الدنيا ورحمة في الآخرة.

وأما الرحمة العامة: فلا أثر لها إلا في الدنيا، ولذلك الكفار في الآخرة يعاملون بالعدل ولا يعاملون بالرحمة

- قال الشيخ ابن عثيمين: وذكر هذين الاسمين الكريمين في البسملة التي تتقدم فعل العبد وقوله، إشارة إلى أن الله إذا لم يرحمك فلن تستفيد لا من هذا الفعل ولا من هذا القول، ولهذا قال النبي ﷺ (لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته).

الخلاصة :

يستحب للمسلم أن يبدأ بالبسملة في كل أمر مهم .

وقد صحح الحديث (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله فهو أبتر) جماعة من العلماء كابن دقيق العيد ، وابن الملقن ، وحسنه النووي ، وحسنه الحافظ ابن حجر نقله عنه في "الفتوحات الربانية" .

فإن صح الحديث في استحباب ذلك: فالأمر واضح .

وإن كان ضعيفاً ، فقد ذهب إلى العمل به أكثر العلماء ، وذكروا أن التسمية مشروعة في كل عمل مهم .

والحديث معناه مقبول ومعمول به، فقد افتتح الله تعالى كتابه بالبسملة، وافتتح سليمان عليه السلام كتابه إلى ملكة سبأ بالبسملة، قال تعالى (إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) وافتتح النبي ﷺ كتابه إلى هرقل بالبسملة، وكان ﷺ يفتتح خطبه بحمد الله والثناء عليه.

جاء في فَتْحِ الْبَارِي : أَنَّ الْبَسْمَلَةَ لِلْكُتُبِ وَالْوَثَائِقِ وَالرَّسَائِلِ ، كَمَا فِي كُتُبِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُلُوكِ وَمَا كَتَبَهُ فِي صُلْحِ الْحُدَيْبِيَةِ ، وَأَنَّ الْحَمْدَ لِلْخُطَبِ " انتهى .

وقال القرطبي رحمه الله : اتَّفَقُوا عَلَى كَتْبِ " بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ " فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ وَالرَّسَائِلِ .

جاء في (**الموسوعة الفقهية**) اتفق أكثر الفقهاء على أن التسمية مشروعة لكل أمر ذي بال، عبادة أو غيرها . انتهى.

ومما يدل على مشروعيتها واستحبابها:

إرشاد الشرع إليها في أمور كثيرة، من عبادات وعادات، مما يفهم أن الشروع في أي عمل أو قول مباح ذي بال هو محل لاستحباب التسمية.

ومما استدلوا به على تأكيد هذا العموم في جميع الأحوال الهامة :

حديث ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ بِاسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقُضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرُّه) متفق عليه .

وبوّب عليه البخاري رحمه الله تعالى بقوله: " بَابُ التَّسْمِيَةِ عَلَى كُلِّ حَالٍ وَعِنْدَ الْوِقَاعِ ".

وعلّق عليه الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى؛ بقوله وليس العموم ظاهرا من الحديث الذي أورده، لكن يستفاد من باب الأولى؛ لأنه إذا شرع في حالة الجماع، وهي مما أمر فيه بالصمت؛ فغيره أولى . (الفتح)

وقال ابن بطال رحمه الله تعالى: وفيه: أن التسمية عند ابتداء كل عمل مستحبة، تبركا بها واستشعارا أن الله سبحانه هو الميسر لذلك العمل، والمعين عليه .

ومن المعلوم كذلك : أن العبد مأمور باستدامة توكله على الله تعالى والاستعانة به في شأنه كله .

والتسمية هي من صيغ الاستعانة التي جاءت بها نصوص الشرع عند الشروع في أي قول أو عمل ذي قيمة ، كما يدل عليه كلام ابن بطال السابق .

قال القرطبي رحمه الله تعالى : ندب الشرع إلى ذكر البسملة في أول كل فعل، كالأكل والشرب والنحر، والجماع والطهارة وركوب البحر، وإلى غير ذلك من الأفعال، قال الله تعالى: (فكلوا مما ذكر اسم الله عليه) (وقال اركبوا فيها بسم الله مجراها ومرساها).

وقال رسول الله ﷺ (أغلق بابك، واذكر اسم الله، وأطفئ مصباحك، واذكر اسم الله، وخمر إناءك، واذكر اسم الله، وأوك سقاءك، واذكر اسم الله) وقال: (لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يقدر بينهما ولد في ذلك لم يضره شيطان أبدا). وقال لعمر بن أبي سلمة: (يا غلام! سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك) وقال: (إن الشيطان ليستحل الطعام إلا أن يذكر اسم الله عليه) وقال: (من لم يذبح، فليذبح باسم الله). وشكا إليه عثمان بن أبي العاص وجعا يجده في جسده منذ أسلم، فقال له رسول الله ﷺ: (ضع يدك على الذي يألم من جسدك، وقل: بسم الله ثلاثا، وقل سبع مرات: أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر) هذا كله ثابت في الصحيح...) .

فائدة :

مواضع تشرع فيها البسملة :

عند غلق الباب ليلاً .

عَنْ جَابِرٍ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (إذا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ، أَوْ قَالَ: جُنْحُ اللَّيْلِ، فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللَّهِ، وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ شَيْئًا) رواه البخاري .

عند المساء :

عَنْ أَبَانَ بْنِ عُثْمَانَ عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (مَنْ قَالَ: بِسْمِ اللهِ الَّذِي لَا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْء) رواه أحمد .

وعند ركوب الدابة :

ففي حديث علي (... وأُتِيَ بدابة ليركبها، فلما وضع رجله في الركاب قال: بسم الله ... الحديث وفي آخره قال: رأيت النبي ﷺ فعل كما فعلت) رواه أبو داود.

وعند الصيد :

عن عدي بن حاتم. قال: قال رسول الله ﷺ (إذا أرسلت كلبك المعلّم وذكرت اسم الله عليه فكل) متفق عليه.

وعند الأكل.

لحديث عمرو بن سلمة قال (كنت غلاماً في حجر النبي ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة فقال: يا غلام سم الله، وكل بيمينك ...) متفق عليه.

وعند دخول المنزل :

لحديث جابر. أن رسول الله ﷺ قال (إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله، وعند طعامه، قال الشيطان: لا مبيت لكم ولا عشاء) رواه مسلم.

وعند الجماع .

لحديث ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال (لو أن أحدكم إذا أتى أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ...) متفق عليه.

وعند الخروج من البيت.

لحديث أنس. قال: قال رسول الله ﷺ (إذا خرج الرجل من بيته فقال: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له حينئذ: هديت وكفيت ...) رواه أبو داود.

وإذا عثر المرء أو عثرت دابته.

لحديث رجل قال (كنت رديف النبي ﷺ فعُثِر بالنبي ﷺ فقلت: تعس الشيطان، فقال النبي ﷺ : لا تقل تعس الشيطان، فإنك إذا قلت تعس الشيطان تعاظم وقال: بقوتي صرعته، وإذا قلت بسم الله تصاغر حتى يصير مثل الذباب) رواه أبو داود.

وعند وضع الميت في قبره.

لحديث ابن عمر (أن النبي ﷺ كان إذا وضع الميت في القبر قال: بسم الله، وعلى سنة رسول الله) رواه أبو داود.

م / أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

==========

بدأ المصنف كتابه بالدعاء للقارئ وهذا يدل على حرصه وعنايته بالقارئ والتمني له الخير .

وهكذا ينبغي أن يكون المعلم ، أن يتمنى لطلابه ومن يدرسهم الخير ويدعو لهم بالتوفيق للعلم النافع والعمل الصالح .

ولذلك قال ﷺ لمعاذ : إني أحبك في الله : فلا تدعن دبر كل صلاة أن تقول : اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك

فقبل أن يعلمه الدعاء قال : إني أحبك في الله ، ليكون أبلغ وأوقع للسامع وأدعى للقبول .

دعا المصنف للقارئ متوسلاً إلى الله بأسمائه الحسنى وذكر منها [الكريم – الرب] .

فإن الكريم من أسماء الله :

كما قال تعالى (يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم) .

معنى الكريم : هو كثير الخير، الجَوادُ المعطِي، الذي لا يَنْفَدُ عَطاؤه، والكريم هو الجامع لأَنواع الخير والشرَف والفضائل، فهو اسم جامع لكل ما يُحْمَد، والكريم كذلك: الصفوح كثير الصفح.

فالله تعالى الكريم الذي يعطي من سأله ومن لم يسأله، ويعطي المؤمن والكافر، والتقي والفاجر، وهو الذي يعطي بغير مقابل ولا سبب، وهو الذي عمَّ عطاؤه المحتاجين وغير المحتاجين.

ومن كرمه سبحانه أنه يعفو ويغفر، ويتجاوز عن المسيئين والمذنبين، ويبدل السيئات حسنات، ويضاعف الحسنة إلى عشر أمثالها إلى أضعاف كثيرة.

وبالرغم من كل ذلك، نجد أن أكثر بني آدم غرَّهم كرم الله تعالى، ووقعوا في الجحود والعصيان والنكران، قال تعالى (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ) قال عمر بن الخطاب ﷺ: "غَرَّهُ وَاللَّهِ جَهْلُهُ.

واسم الأكرم يدل على المبالغة في الكرم وكثرته، فهو سبحانه أكرم الأكرمين، لا يوازيه كريم، ولا يعادله في الكرم نظير.

قال السعدي رحمه الله : أي : كثير الصفات واسعها، كثير الكرم والإحسان، واسع الجود " .

وقال ابن القيم رحمه الله : الله سبحانه غنى كريم ، عزيز رحيم . فهو محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير، ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة منه وإحسانا ... فهو سبحانه لم يخلق خلقه ليتكثر بهم من قلة ، ولا ليعتز بهم من ذلة ، ولا ليرزقوه قوة ، ولا لينفعوه، ولا ليدفعوا عنه .

من آثار الإيمان باسمه سبحانه : الكريم .

أولاً: محبته سبحانه وتعالى على كرمه وجوده ونعمه التي لا تعد ولا تحصى ، والسعي إلى تحقيق هذه المحبة ، بشكره سبحانه بالقلب واللسان والجوارح، وإفراده وحده بالعبادة، وأن لا يكون من العبد إلا ما يرضي الله سبحانه، ومجاهدة النفس في ترك ما يسخطه ، والمبادرة إلى التوبة عند الوقوع فيما لا يرضيه عز وجل .

ثانيًا: الحياء منه سبحانه والتأدب معه –عز وجل– حيث : مع كثرة معاصي عباده ، إلا أنه لم يمنع عنهم عطاءه وكرمه وجوده ... وهذا الكرم العظيم يورث في قلب العبد المؤمن حياء وانكسارًا ، وخوفًا ورجاءً ، وبعدًا عما يسخطه سبحانه وتعالى.

ثالثًا: التعلق به وحده سبحانه ، والتوكل عليه وتفويض الأمور إليه ، وطلب الحاجات منه وحده سبحانه ، لأنه الكريم الذي لا نهاية لكرمه ، والقادر الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، الحي الذي لا يموت ، بخلاف المخلوق الذي يغلب عليه الشح في العادة ، ولو كان كريمًا فإن كرمه محدود ، وفان بفنائه ، وقد يريد التكرم على غيره ولكن عجزه يحول دون ذلك . قال الله تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ) .

وقال سبحانه (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ) .

وهذا يورث قوة الرجاء ، والطمع في كرمه ورحمته ، وقطع الرجاء من المخلوق.

رابعًا: التخلق بخلق الكرم، والتحلي بصفة الجود والسخاء على عباد الله تعالى، فإن الله –عز وجل– كريم يحب من عباده الكرماء الذين يفرج الله بهم كرب المحتاجين ، ويغيث بهم الملهوفين.

وهذا من التوسل المشروع أن يتوسل الإنسان بأسماء الله :

كما قال تعالى (ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها) .

كأن يقول السائل : يا رحمن يا غفور يا رحيم يا عزيز اغفر لي وارحمني .

م / رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

==========

هذا مدح لله تبارك وتعالى بأنه رب العرش العظيم .

وقد مدح سبحانه وتعالى نفسه بأنه رب العرش في آيات :

قال تعالى (وهو رب العرش العظيم) .

وقال تعالى (فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم) .

والعرش أعظم المخلوقات .

والعرش في اللغة هو السرير ، قال تعالى عن يوسف : (ورفع أبويه على العرش) وقال عن ملكة سبأ : (ولها عرش عظيم)

وأما عرش الرحمن الذي استوى عليه : فهو عرش عظيم ، ذو قوائم تحمله الملائكة ، وهو كالقبة على العالم ، وهو سقف هذه المخلوقات

قال ابن تيمية : الْعَرْشَ مَخْلُوقٌ ؛ فَإِنَّ الله يَقُولُ: (وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) وَهُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ: الْعَرْشُ وَغَيْرُهُ ، وَرَبُّ كُلِّ شَيْءٍ: الْعَرْشُ وَغَيْرُهُ " .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله : العرش مخلوق عظيم ، لا يعلم قدره إلا الله .

وقال أيضاً رحمه الله : أما العرش فهو فوق السموات كالقبة، لكنه غير كروي؛ لأن له قوائم كما أخبر النبي ﷺ أنه إذا صعق الناس يوم القيامة يكون الرسول ﷺ أول من يفيق، ويرى موسى آخذاً بقوائم العرش، فهذا العرش ليس كروياً، ولكن ما تحت العرش كروي . انتهى .

هذا العرش وصفه الله بأوصاف عظيمة :

وصفه بالعظمة :

كما في قوله (وهو رب العرش العظيم) .

قال ابن كثير رحمه الله وهو رب العرش العظيم أي : هو مالك كل شيء وخالقه ؛ لأنه رب العرش العظيم الذي هو سقف المخلوقات ، وجميع الخلائق من السموات والأرضين وما فيهما وما بينهما تحت العرش مقهورين بقدرة الله تعالى ، وعلمه محيط بكل شيء ، وقدره نافذ في كل شيء ، وهو على كل شيء وكيل .

وقال رحمه الله : (ذو العرش المجيد) أي : ذو العرش أي : صاحب العرش العظيم العالي على جميع الخلائق ، و المجيد : فيه قراءتان : الرفع على أنه صفة للرب عز وجل ، والجر على أنه صفة للعرش ، وكلاهما معنى صحيح . (ابن كثير)

والمجيد : المتسع عظيم القدر .

ووصفه بأنه كريم : كما في قوله (رب العرش الكريم) .

وتمدح سبحانه بأنه ذو العرش : كما قال تعالى (رفيع الدرجات ذو العرش) .

وأخبر سبحانه أن للعرش حملة : كما في قوله تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) .

وأخبر سبحانه أن عرشه كان على الماء قبل أن يخلق السموات والأرض : كما قال تعالى (وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء) .

وأخبر ﷺ أن للعرش قوائم كما في قوله (لا تخيروا بين الأنبياء ، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يُفيق ، فإذا موسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ..) .

كما أخبر النبي ﷺ أن العرش فوق الفردوس كما قال ﷺ (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن) رواه البخاري .

كما اخبر ﷺ أن التقدير كان بعد وجود العرش وقبل خلق السموات والأرض فقال ﷺ (إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء) رواه مسلم .

روى البخاري عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن نَاساً مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ سألوا النبي ﷺ عَنْ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ ؟ فقَالَ : (كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَكَتَبَ فِي الذِّكْرِ كُلَّ شَيْءٍ) .

وفي رواية (كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ) .

فعرش الرحمن سبحانه خلق من خلقه ، خلقه قبل خلق السموات والأرض وما فيهن .

والحديث المتقدم يدل على أنه لم يكن شيء أولاً غير الله تعالى ، لا العرش ولا غيره من المخلوقات ، ثم إنه سبحانه خلق العرش ، ثم خلق المخلوقات .

قال الحافظ رحمه الله: فِيهِ دَلَالَة عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْء غَيْره لَا الْمَاء وَلَا الْعَرْش وَلَا غَيْرهمَا، لِأَنَّ كُلّ ذَلِكَ غَيْر الله تَعَالَى " انتهى.

وكان من دعائه ﷺ ما رواه مسلم (اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ ...) .

وللعرش حملة يحملونه .

قال تعالى (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) .

وهم على خِلقة عظيمة .

عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال (أُذِن لي أن أحدِّث عن ملَك من ملائكة الله من حملة العرش ، إنَّ ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام) رواه أبو داود .

والحديث : قال عنه الحافظ ابن حجر : وإسناده على شرط الصحيح .

والعرش ليس هو المُلْك وليس هو الكرسي .

قال ابن أبي العز الحنفي رحمه الله : وأما من حرَّف كلام الله وجعل العرش عبارة عن الملك ، كيف يصنع بقوله تعالى (ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) .

وقوله (وكان عرشه على الماء) أيقول : ويحمل ملكه يومئذ ثمانية ، وكان ملكه على الماء ويكون موسى عليه السلام آخذا بقائمة من قوائم المُلْك ؟ هل يقول هذا عاقل يدري ما يقول .

وأما الكرسي فقال تعالى (وسع كرسيه السموات والأرض) وقد قيل: هو العرش، والصحيح: أنه غيره، نُقل ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. روى ابن أبي شيبة في كتاب "صفة العرش" والحاكم "في مستدركه" وقال: إنه على شرط الشيخين ولم يخرجاه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: وسع كرسيه السموات والأرض أنه قال: "الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدر قدره إلا الله تعالى".

وقد روي مرفوعاً ، والصواب : أنه موقوف على ابن عباس ...

قال أبو ذر رضي الله عنه : سمعت رسول الله ﷺ يقول : " ما الكرسي في العرش إلا كحلْقة من حديد أُلقيت بين ظهري فلاة من الأرض " .

وهو كما قال غير واحدٍ من السلف : بين يدي العرش كالمرقاة إليه" انتهى (شرح العقيدة الطحاوية)

فائدة :

جاء أن حملة العرش الآن أربعة ، ويوم القيامة ثمانية ، قيل ثمانية أملاك ، وقيل ثمانية صفوف من الملائكة .

والقول بأن حملة العرش اليوم أربعة ، هو قول جمهور المفسرين ، ورجحه جماعة ، منهم : ابن كثير .

قال ابن الجوزي رحمه الله: "وجاء في الحديث أنهم اليوم أربعة، فإذا كان يوم القيامة أمدهم الله بأربعة أملاك آخرين، وهذا قول الجمهور.

م / أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

==========

(أن يتولاك في الدنيا) أي يكون لك ولياً في الدنيا ، ومن تولاه الله سدده الله وحفظه وحماه ووفقه للتوحيد والسنة وحماه من الشرك والبدعة وهداه لكل خير .

(والآخرة) أن يحفظك في الآخرة بدخول الجنة والنجاة من كرب يوم القيامة وأهواله وشدائده .

وولي الله : بينه الله بقوله [ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون الذين آمنوا وكانوا يتقون) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : من كان مؤمناً تقياً كان لله ولياً .

وولاية الله تنقسم إلى قسمين :

ولاية عامة : وهذه لجميع الناس المؤمن والكافر .

ومعناه : ولايته على الخلق كلهم تدبيراً وقياماً بشؤنهم من رزق وإطعام ونحو ذلك .

دليل هذه الولاية العامة :

قوله تعالى (حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق) .

وقوله تعالى (وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

وهذه الولاية : أن لله تعالى كمال السلطان ، والتدبير في جميع خلقه.

وولاية خاصة : وهذه خاصة بالمؤمنين .

مقتضاه النصر والتأييد والتوفيق والنصر والإعانة والسداد لكل خير .

كما قال تعالى (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ).

وقال تعالى (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ).

وقال تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ).

فالله ولي المؤمنين: لأنه يواليهم بالنصر والثواب الجزيل، كما قال ﷺ في الحديث القدسي (من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب) رواه البخاري.

والمؤمنون أولياء الله كقوله تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) لأنهم يوالونه بالطاعة.

فمن فضائل ولاية الله :

أولاً : إخراج العبد من الظلمات إلى النور .

كما قال تعالى (الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) .

ثانياً : الدفاع عنهم .

كما قال ﷺ في الحديث القدسي (قال تعالى : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب) رواه البخاري .

ثالثاً : لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

قال تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) .

[لا خوف عليهم] فيما يستقبلون من أمر الآخرة [ولا هم يحزنون] على ما مضى .

فائدة : كيف تنال ولاية الله :

الإيمان .

قال تعالى (أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ) .

فالإيمان سبب يوالي به المؤمنين ربهم بالطاعة، ويواليهم به الثواب والنصر والإعانة.

التقوى :

وهي أن يجعل العبد بينه وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه .

قال تعالى (وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) .

روى البخاري ومسلم من حديث عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ قال (أَلَا إِنَّ آلَ أَبِي –يعني فُلانًا– لَيْسُوا بِأَوْلِيَائِي، إِنَّمَا وَلِيِّيَ اللَّهُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ) .

وفي الحديث الآخر الذي رواه أبو داود في سننه من حديث عبدالله بن عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال (وَإِنَّمَا أَوْلِيَائِيَ الْمُتَّقُونَ) .

أداء الفرائض على أكمل الوجوه .

عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال (إِن اللهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ ...) .

التقرب إلى الله بالنوافل؛ كقيام الليل وصيام النهار والصدقات وغير ذلك .

قال ﷺ (إِن الله يَقُولُ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِما افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنوَافِلِ حَتى أُحِبَّهُ ...) .

فائدة : قوله (**من عادى لي ولياً فَقْد آذَنْتهُ بِالْحَرْبِ**) .

فيه تحريم معاداة أولياء الله، والمعنى: فقد أعلمته أني محارب له.

فأولياء الله تجب موالاتهم وتحرم معاداتهم، كما أن أعداءه تجب معاداتهم وتحرم موالاتهم.

قال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ).

وقال تعالى (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ).

ومن صفات أولياء الله كما قال تعالى (مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) .

فائدة : **قال ابن القيم**: فالولاية عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، وليست بكثرة صوم ولا صلاة.

م / وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ .

==========

البركة : كثرة الخير .

والمبارك : هو من جعل الله فيه أسباب البركة .

فالعالم مبارك لأنه يعلم ويدعو إلى الله ، كما جاء في الحديث من قول أسيْد بن حضير [ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر] .

والتاجر المنفق الصالح مبارك لأنه ينفق ماله في طاعة الله .

المراد بالبركة البركة السببية وليست ذاتية ، لأنه ليس هناك أحد مبارك بركة ذاتية إلا الرسول ﷺ فإن الصحابة كانوا يتبركون بأبعاضه كأظفره أو ثيابه .

فالمصنف يدعو للقارئ أن يكون مباركاً في عمره وعمله وفي وقته وفي علمه وأن يكون نافعاً للعباد حيثما نزل وحيثما حل .

وهذا فضل عظيم وكبير لمن حصل له .

لأن من بورك له في وقته شغله بطاعة الله ، ولم يضيعه ، واستغله فيما يعود عليه بالنفع .

ومن بورك له في علمه : نفعه الله به ونفع به العباد .

ولذلك قال عيسى (وجعلني مباركاً أينما كنت) .

إن من بورك له في وقته : فهو الموفق . فنسأل الله أن يبارك لنا في أوقاتنا وفي أعمالنا وفي أعمارنا .

وإن من أعظم من بورك له في وقته الحبيب ﷺ .

ففي يوم الفتح –وقت حرب– وهو قائد أمة ومع ذلك يصلي الضحى ثمان ركعات ، إن هذا من بركة وقته ﷺ .

والإمام النووي رحمه الله : لم يتجاوز عمره (٤٥) عاماً ومع ذلك ألف مؤلفات عظيمة ، مع قصر حياته ، بل كان عنده في اليوم الواحد : ١٢) درساً كما ذكر ذلك في ترجمته .

ومن أراد أن يبارك الله فيه فعليه :

أولاً : بالإخلاص لله تعالى .

فهذا أساس الأعمال وأساس قبولها وعظمتها .

قال ابن القيم رحمه الله: "وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة؛ فإن الله تعالى هو الذي تبارك وحده، والبركة كلها منه .

ثانياً : دعاء الله بذلك : اللهم اجعلني مباركاً .

قال تعالى (هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ).

طيبة: أي طائعة لله تعالى منيبة اليه.

وقال الله عنه (... فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا. يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا).

كان ﷺ يدعو للمتزوجين بالبركة. (بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير).

وكان ﷺ يؤتى بالصبيان فيدعو لهم ويبرك عليهم.

وعلمنا ﷺ أن ندعو لمن أطعمنا فنقول: "اللهم بارك لهم فيما رزقتهم واغفر لهم وارحمهم".

وعلمنا أن ندعو بالبركة في طعامنا فنقول: "اللهم بارك لنا فيه".

وكان من دعاء بعض السلف لبعض : أسأل الله أن يجعلك مباركاً .

ثالثاً : تحقيق تقوى الله تعالى، ومراقبته في السرّ والعلانية.

قال تعالى (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْض).

رابعاً : صلةُ الأرحام.

قال ﷺ (مَن أحبَّ أن يُبسطَ له في رِزْقِه، ويُنسأ له في أثرِه، فلْيصلْ رَحِمه).

وقال ﷺ (تعلَّموا مِن أنسابِكم ما تصلون به أرحامَكم؛ فإنَّ صلَة الرَّحِم محبَّةٌ في الأهل، مثراةٌ في المال، منسأةٌ في الأثر). رواه الإمام أحمد

خامساً : قراءة القرآن.

قال تعالى (كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ).

قال بعض السلف: لو تفرغت قلوبكم ما شبعتم من قراءة القرآن.

قال بعض العلماء: اشتغلنا بالقرآن فغمرتنا البركات.

سادساً : أخذ المال وطلبه بطيب نفس من غير شره ولا إلحاح.

عن حكيم بن حزام. قال: قال ﷺ (عَنْ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ قَالَ: سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ سَأَلْتُهُ فَأَعْطَانِي ثُمَّ قَالَ «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ فَمَنْ أَخَذَهُ بِطِيبِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلاَ يَشْبَعُ وَالْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى).

فليحذر الإنسان من أن يطلب المال بطمع أو شره أو قلة توكل.

قال سعد لابنه: إياك والطمع فإنه فقر حاضر، وعليك بالقناعة فإنها مال لا ينفد.

سابعاً : الصدق في المعاملة من بيع او شراء او غيرها.

عن حكيم بن حزام ﷺ قال: قال النبي ﷺ (الْبَيِّعَانِ بِالْخِيَارِ مَا لَمْ يَتَفَرَّقَا أَوْ قَالَ حَتَّى يَتَفَرَّقَا فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا بُورِكَ لَهُمَا فِي بَيْعِهِمَا وَإِنْ كَتَمَا وَكَذَبَا مُحِقَتْ بَرَكَةُ بَيْعِهِمَا).

عَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (رَحِمَ اللَّهُ رَجُلاً سَمْحًا إِذَا بَاعَ، وَإِذَا اشْتَرَى، وَإِذَا اقْتَضَى).

عنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ (كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ فَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ إِذَا أَتَيْتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ لَعَلَّ اللَّهَ يَتَجَاوَزُ عَنَّا. فَلَقِيَ اللَّهَ فَتَجَاوَزَ عَنْهُ) ق.

ثامناً : قضاء الأعمال والتجارات في أول النهار.

فعن صخر الغامدي ﷺ عن النبي ﷺ قال (اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا).

قال: كان رسول الله ﷺ إذا بعث سرية بعثها أول النهار، وكان صخر رجلاً تاجرًا، وكان لا يبعث غلمانه إلا من أول النهار، فكثر ماله حتى كان لا يدري أين يضع ماله.

تاسعاً : اتباع السنة في الطعام والشراب.

فعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ (الْبَرَكَةُ تَنْزِلُ وَسَطَ الطَّعَامِ، فَكُلُوا مِنْ حَافَتَيْهِ وَلَا تَأْكُلُوا مِنْ وَسَطِه).

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال (أمر رسول الله ﷺ بلعق الأصابع والصحفة، وقال: إِنَّكُمْ لاَ تَدْرُونَ فِي أَيِّ طَعَامِكُمُ البَرَكَة).

وعن وحشي ﷺ (أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا نأكل ولا نشبع" قال: فَلَعَلَّكُمْ تَأْكُلُونَ مُتَفَرِّقِينَ؟ قالوا: نعم، قال: فَاجْتَمِعُوا عَلَى طَعَامِكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللهِ عَلَيْهِ، يُبَارَكْ لَكُمْ فِيه).

م / وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أذنب اسْتَغْفَرَ. فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

==========

لماذا هذه هي عنوان السعادة ؟

لأن الإنسان لا ينفك عن حال من هذه الحالات الثلاث .

إما أن يُعطَى ، وإما أن يبتلى ، وإما أن يذنب ويقع في الذنب . [فإن قام بوظيفة كل حالة فهو السعيد لأنه حقق عبودية الله فيها] .

لأن الإنسان إما أن يكون في نعمة ، فما هي وظيفة هذه النعمة ؟ ما هو واجبه تجاه نعم الله ؟

هو شكرها والقيام بشكرها .

وإما أن يقع بذنب – ولا يسلم أحد من الذنوب – فما هو الواجب على من وقع في ذنب ؟ الواجب عليه أن يستغفر ربه وأن يتوب وأن يعود إلى الله .

وإما أن يكون في محنة وبلية ومصيبة ، فما هو موقف المسلم إذا أصيب ببلاء أو مصيبة ؟ الصبر واحتساب الأجر عند الله .

فلذلك صارت هذه الثلاث من أعظم أسباب السعادة .

لأنه حقق العبودية لربه على كل أحواله ، وهكذا المؤمن حقاً ، يسعى في رضا الله وتحقيق عبوديته على أي حالة يمر بها في حياته.

وقد جاء في صحيح مسلم: عن صهيب بن سنانٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رسولُ الله ﷺ (عَجَباً لأَمْرِ المؤمنِ إنَّ أمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خيرٌ ولَيسَ ذلِكَ لأَحَدٍ إلاَّ للمُؤْمِن: إنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكانَ خَيراً لَهُ، وإنْ أَصَابَتْهُ ضرَاءُ صَبَرَ فَكانَ خَيْراً لَه).

فهذا الحديث دليل على فضل الله تعالى على المؤمن، حيث إن المؤمن إن أصابته ضراء فصبر كان خيراً، وإن أصابته سراء فشكر كان خيراً.

وفي المسند عنه (والذي نفسي بيده لا يقضى الله للمؤمن قضاء إلا كان خيراً له، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن).

وفي لفظ (إن أمر المؤمن كله عجيب، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له).

وفي لفظ لأحمد (عجبتُ للمؤمن، إن أصابه خير حمِد الله وشكر، وإن أصابته مصيبةٌ حمِد الله وصبر، فالمؤمن يُؤجرُ في كل أمرِه، حتى في اللقمةِ يرفعُها إلى فيّ امرأته).

فالمؤمن في هذه الدنيا دائر بين نعمة ومصيبة، فالنعمة يقابلها بالشكر، والمصيبة يقابلها بالصبر، وهذا من أعظم علامات السعادة.

قال ابن رجب –رحمه الله– قوله (وليس ذلك إلا للمؤمن) ومِن ها هنا كان العارفون بالله لا يختارون إحدى الحالتين على الأخرى، بل أيّهما قدّر الله رضُوا به، وقاموا بعبوديته اللائقة به . انتهى .

فالعبد لا ينفك عن هذه الأمور الثلاثة أبداً: إذا أذنب استغفر، وإذا أعطي شكر، وإذا ابتلي صبر.

قال ابن القيم: فإن هذه الثلاثة هي عنوان سعادة العبد، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبداً، فإن العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث .

الكافر –وبعض المسلمين– يجزع عند المصيبة من فقر ومرض وغيرهما، ويبطر عندما يحصل له خير من عافية وغنى وغيرهما، فهو معيب في كلا طرفي الابتلاء، فهو لا ينجح في الأمرين، إذ لا يشكر نعمة ولا يصبر على نقمة.

قال تعالى (لَا يَسْأَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ).

وَقَوْلِه تعالى في سورة الروم (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ).

وَقَوْلِهِ فِيهَا أَيْضًا (وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ).

وَقَوْلِهِ تعالى فِي سُورَةِ يونس (وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ).

أما المؤمن الحق، فقد بيّن النبي ﷺ أنه بخلاف ذلك: يشكر عند السراء، ويصبر عند الضراء كما في الحديث السابق .

السبب الأول : إذا أعطي شكر :

فمن أسباب السعادة أن يشكر الإنسان ربه على نعمه العظيمة الجليلة .

والشكر له ٣ أركان :

يكون بالقلب ، ويكون باللسان ، ويكون بالجوارح .

بالقلب، قال تعالى (وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ).

وباللسان، قال تعالى (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ).

وبالجوارح، قال تعالى (اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)، وحديث قيام النبي ﷺ الليل حتى تتفطر رجلاه .

بالقلب : هو إيمان القلب بأن النعمة من الله تعالى ، وأن له المنة في ذلك .

باللسان : التحدث بنعمة الله اعترافاً – لا افتخاراً .

بالجوارح : وهو القيام بطاعة المنعِم . [ولذلك في الحديث كان النبي يقوم الليل حتى تتفطر قدماه].

وفي ذلك يقول الشاعر :

أفادتكم مني النعماءُ ثلاثةً يدي ولساني والضميرَ المحجبا .

يدي : الجوارح **لساني** : القول بالثناء على الله بالنعمة **الضمير المحجبا** : الاعتقاد .

والله عز وجل يذكر عباده بنعمه عليهم ويدعوهم إلى تذكرها كما قال تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة).

وقال تعالى (يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم ...) .

والشكر له فضائل وثمرات :

أولاً : أن الله أمر به .

فقال تعالى (كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون) .

وقال تعالى (بل الله فاعبد وكن من الشاكرين) .

وقال تعالى (أفلا يشكرون) .

ثانياً : الثناء على الشاكرين وأن الشكر سبيل رسل الله وأنبيائه .

كما قال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم) .

وقال تعالى (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً) .

ثالثاً : أن الشكر نفع للشاكر نفسه .

كما قال تعالى (ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه) .

وقال تعالى (وسيجزي الله الشاكرين) .

رابعاً : أن الشكر مانع من العذاب .

قال تعالى (ما يفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم) .

خامساً : أن الشكر سبب لزيادة النعم وبقائها .

كما قال تعالى (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم) .

سادساً : أن الصفوة المختارة وعباد الله الصالحين يسألون الله أن يوزعهم شكر نعمه .

كما قال تعالى عن سليمان (وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين) .

سابعاً : أن الشاكرين قليل .

كما قال تعالى (وقليل من عبادي الشكور) .

وبما أن الشكر منزلته عظيمة ؛ كيف نحقق الشكر ؟ نحققه بأمور :

أولاً: سؤال الله ذلك.

كما قال تعالى عن سليمان: (وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ).

وقال ﷺ لمعاذ: (يا معاذ، لا تدعن دبر كل صلاة أن تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك). رواه أبو داود

ثانياً: أن يعلم الإنسان أن النعم إذا شكرت قرت وزادت.

قال تعالى: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ).

ثالثاً: أن يعلم الإنسان أن الله سيسأله يوم القيامة عن شكر نعمه.

قال تعالى: (ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ).

قال ابن كثير: أي ثم لتسألن عن شكر ما أنعم الله به عليكم من الصحة والأمن والرزق وغير ذلك، ماذا قابلتم به نعمه من شكر وعبادة.

رابعاً: أن ينظر إلى من هو دونه في أمور الدنيا، فإذا فعل ذلك استعظم ما أعطاه الله.

قال ﷺ (انظروا إلى من هو أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم).

قال عون بن عبد الله :

صحبتُ الأغنياء ، فلم أر أحداً أكبر هماً مني ، أرى دابة خيراً من دابتي ، وثوباً خيراً من ثوبي ، وصحبت الفقراء فاسترحت.

السبب الثاني : وإذا ابتلي صبر .

هذا السبب الثاني من أسباب السعادة .

فإن الإنسان يجب عليه إذا أصيب بمصيبة أو محنة أو غيرها من الابتلاءات كالأمراض والأسقام والديون أو غيرها، فإن الواجب عليه الصبر.

فإن صبر فقد حقق ما يجب عليه من الأمر بالصبر عند حدوث المصائب .

قال تعالى (ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين) .

وقال تعالى (استعينوا بالصبر والصلاة) .

وقال ﷺ (عجباً لأمر المؤمن ! إن أمره كله له خير ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن : إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له) رواه مسلم .

وقال ﷺ (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فله السخط). رواه الترمذي

وقال ﷺ (ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه من خطيئة) رواه الترمذي .

وللبلاء فوائد :

أولاً : لينال أجر وفضل الصابرين على صبره على مصيبته .

ثانياً : أن المصائب تكفير للسيئات ورفع للدرجات .

ثالثاً : أن البلاء يقطع قلب المؤمن من الالتفات إلى المخلوق .

رابعاً : تذكير العبد بذنوبه فربما تاب ورجع .

خامساً : زوال قسوة القلب وانكساره لله ، فإن ذلك أحب إلى الله من كثير من طاعات الطائعين .

فمن لم يصبر على البلاء فليس بسعيد ، لأنه لم يحقق عبودية الله في بلائه ، التي هي الصبر والاحتساب .

السبب الثالث : وإذا أذنب استغفر .

من علامات السعادة ، ومن علامات التوفيق ، أن الإنسان كلما وقع في ذنب استغفر وتاب من ذلك الذنب .

وهذا هو الواجب على المسلم الذي وقع في ذنب أن يتوب ويستغفر ربه من ذلك الذنب .

قال تعالى في صفات المتقين (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله) .

وقال تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات) .

وقال تعالى (ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً) .

وهذا نبي الله موسى يقول (قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم) .

وها هو الخليل يقول (والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين) .

وقال تعالى في الحديث القدسي (يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب فاستغفروني أغفر لكم) رواه مسلم .

فالإنسان يقع في الذنوب – وكل ابن آدم خطاء – لكن خيرهم من يستغفر ويتوب ويرجع .

- فمن لم يستغفر الله ويتوب من ذنبه فهو خاسر شقي ظالم لنفسه .

قال تعالى (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) .

وللاستغفار فوائد منها :

أولاً: تكفير السيئات ورفع الدرجات.

قال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَحِيماً).

وفي الحديث القدسي (قال الله: من يستغفرني فأغفر له ..) متفق عليه.

وتقدم قوله تعالى في الحديث القدسي (فاستغفروني أغفر لكم) رواه مسلم.

ثانياً: سبب لسعة الرزق والإمداد بالمال والبنين.

قال تعالى عن نوح أنه قال لقومه (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً. يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً. وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً).

ثالثاً: سبب لحصول القوة في البدن.

قال هود لقومه (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ).

رابعاً: سبب لدفع المصائب ورفع البلايا.

قال تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ).

خامساً: سبب لبياض القلب.

قال ﷺ (إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه). رواه أحمد

قال بعض العلماء: طوبى لمن وجد في صحيفته استغفاراً كثيراً.

وكان ابن عمر: يطلب من الصبيان الاستغفار ويقول: إنكم لم تذنبوا.

وقال قتادة: إن هذا القرآن يدلكم على دائكم ودوائكم، فأما داؤكم فالذنوب، وأما دواؤكم فالاستغفار

فائدة:

قال تعالى (وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ).

قال السعدي: وفي الأمر بالاستغفار بعد الحث على أفعال الطاعة والخير، فائدة كبيرة، وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به، إما أن لا يفعله أصلاً، أو يفعله على وجه ناقص، فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار، فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته فإنه هالك.

م / اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾.

==========

(**اعلم**) كلمة يؤتى بها للتنبيه لما يلقى بعدها .

(**أرشدك الله**) أي وفقك الله لما ينفعك في دنياك وآخرتك .

والرشد : الاستقامة على الطريق الحق ، ضد الغي .

(**لطاعته**) الطاعة : موافقة المراد فعلاً للمأمور وتركاً للمحظور .

وهذا دعاء من المصنف رحمه الله للطالب وللقارئ .

وهذه عادة المصنف في مصنفاته أن يدعو للقارئ ، وهذا من حرصه ورفقه بالقارئ .

(**أن الحنيفية**) وهي الملة المائلة عن الشرك ، المبنية على الإخلاص لله عز وجل .

والحنيف : مشتق من الحنف ، وهو الميل . فالحنيف : المائل عن الشرك قصداً إلى التوحيد.

والحنيف : المستقيم المستمسك بالإسلام المقبل على الله المعرض عن كل ما سواه ، وكل من كان على دين إبراهيم .

قال تعالى (ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً) .

(**ملة إبراهيم**) دين إبراهيم ، وهي الإسلام كما قال تعالى (مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

-والْحَنِيفِيَّةُ: دِينُ جَمِيعِ الأَنْبِيَاءِ؛ ولكِن أُضِيفت إلى إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عليه السلام؛ لأَنَّه أَكْمَلُ الخَلْقِ تحقِيقًا للتَّوحيدِ مع نبيّنا ﷺ؛ وإِبْرَاهِيمُ: الأَبُ، ومُحَمَّدٌ ﷺ: الِابنُ؛ فاستَحَقَّ أن تُنْسَبَ إلى الأَبِ دُون الابْنِ؛ فيقال: مِلَّةُ إِبْرَاهِيمَ على جهةِ التَّشْرِيفِ له؛ وإن كانَت هي مِلَّةَ الأَنبيَاء جَميعاً.

قال تعالى (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ شَاكِرًا لأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ. ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ).

(**أن تعبد الله مخلصاً له الدين**) أي : الحنيفية وشريعة الخليل إبراهيم عليه السلام، وجميع الأنبياء هي ما قررها المصنف: أن تعبد الله مخلصاً له الدين ، فهذه هي حقيقة ملة إبراهيم عبادة الله بالإخلاص .

والإخلاص : أن يقصد الإنسان بعمله رضا الله لا أمراً دنيوياً ، من مال أو جاه أو منصب أو مدح

والأدلة على وجوب ذلك كثيرة

قال تعالى (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ).

وقال تعالى (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ).

وقال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) .

وقال تعالى (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي).

وقال تعالى (قُلْ إِنِي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين).

وقال تعالى (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

وقال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه.

وقال ﷺ (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجه الله) رواه النسائي.

وقال ﷺ قال تعالى (من عمِل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركَه) رواه مسلم.

وعن محمود بن لبيد. أن رسول الله ﷺ قال (إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء) رواه أحمد.

-وللإخلاص فضائل:

أولاً: أنه سبب لمغفرة الذنوب.

والدليل: قصة المرأة الزانية التي سقت الكلب فغفر الله لها "والقصة عند البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رحمه الله: فتأمل ما قام في قلبها من حقائق الإيمان والعبودية في هذه اللحظة فمنها: أنها لم تعمله ابتغاء الأجر من أحد لأنها تعطي كلباً فلا تنتظر منه جزاء أو شيئاً – وأنه لم يرها أحد إلا الله وهذا يدل عليه ظاهر الحديث – أنها أتعبت نفسها في سقايتها لهذا الكلب فنزلت في البئر مع أنها امرأة ثم ملئت خفها بالماء وحملته بفيها ثم سقت هذا الكلب الحقير، فتأمل ما قام في قلبها من أسرار الإخلاص فعندما تمت هذه الحقائق في قلبها، أحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء والزنا فغفر الله لها.

ثانياً: أنه يصرف الفتنة عن القلب.

قال الإمام ابن تيمية في الفتاوى (١/ ٦٠): فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كلّه لله عز وجل.

ويوسف عليه السلام ما نجى من فتنة المرأة إلا بالإخلاص لله تعالى قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين).

قال ابن تيمية في الفتاوى (٢٦١/١٠): فإن قوة إخلاص يوسف عليه السلام وخشيته من الله عز وجل كان أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها.

ثالثاً: أنه به تكمل العبودية لله تعالى.

قال الإمام ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ١٩٨): وكلما قوي إخلاص العبد كملت عبوديته.

لأن بالإخلاص تقبل الأعمال وترفع إلى الله، وكلما قبل العمل ارتفعت المنزلة والدرجة عند الله تعالى لذلك العبد، ولهذا كان من أبرز صفات المقربين والسابقين عند الله هو "إخلاصهم لله" فبالإخلاص ارتفعوا عن الناس وأصبحوا في أعالي عليين.

رابعاً: أنه سبب لاستغناء القلب عن الناس.

قال الإمام ابن تيمية في الفتاوى: لا يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يحب إلا له ولا يبغض إلا له.

خامساً: أنه سبب لمضاعفة الحسنات.

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ).

قال ابن كثير: وقوله ههنا (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) أي: بحسب إخلاصه في عمله.

وقال ﷺ (والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ...) رواه البخاري.

قال ابن رجب: ومضاعفة الأجر بحسب كمال الإسلام، وبكمال وقوة الإخلاص في ذلك العمل.

وقال ﷺ (صلاة الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس بخمس وعشرين درجه). رواه ابن ماجه وصححه الألباني

سادساً: أنه سبب لقبول الدعاء وتفريج الكرب.

والدليل على ذلك: قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار وفيها أنهم قالوا: (اللهم إن كنا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه ففرج الله عنهم) والقصة معروفة وهي عند البخاري ومسلم.

سابعاً: أنه سبب للنصر على الأعداء.

لحديث سعد رضي الله عنه قال: قال ﷺ (إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم).

ثامناً: أنه ينجي العبد من النار يوم القيامة.

لقول النبي ﷺ (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله) رواه البخاري.

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٢٦١): فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله، فإن ذلك دليل على أنه لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار.

تاسعاً: سبب للنجاة من كيد الشيطان.

قال تعالى (قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ. إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ).

وقال تعالى (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ).

م / فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلا مَعَ التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاةَ لا تُسَمَّى صَلاةً إِلا مَعَ الطَّهَارَةِ، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت كالحدث إذا دخل في الطهارة) .

==========

أي : إذا عرفت أيها المكلف أنك مخلوق في هذا الكون لهذه الحكمة العظيمة وهي عبادة الله ، ولم تخلق عبثاً ولا سدى ، فيجب أن تعلم أن العبادة لا تسمى عبادة ولا تصح ولا تقبل إلا مع التوحيد لله والإخلاص له تعالى .

كما أن الصلاة لا تصح إلا مع الطهارة .

كما قال ﷺ (لاَ تُقْبَلُ صَلاَةُ أَحَدِكُمْ إِذَا أَحْدَثَ حَتَّى يَتَوَضَّأَ) متفق عليه .

وقال ﷺ (لاَ تُقْبَلُ صَلاَةٌ بِغَيْرِ طُهُورٍ وَلاَ صَدَقَةٌ مِنْ غُلُولٍ) رواه مسلم.

قال النووي: الْحَدِيث نَصّ فِي وُجُوب الطَّهَارَة لِلصَّلَاةِ، وَقَدْ أَجْمَعَتْ الْأُمَّة عَلَى أَنَّ الطَّهَارَة شَرْط فِي صِحَّة الصَّلَاة.

فكذلك العبادة لا تصح ولا تقبل إلا مع التوحيد والإخلاص له .

فيشترط لقبول العبادة :

الشرط الأول : الإيمان .

قال تعالى (وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) .

قوله (**وَهُوَ مُؤْمِنٌ**) وهذا شرط لجميع الأعمال، لا تكون صالحة ولا تقبل ولا يترتب عليها الثواب ولا يندفع بها العقاب إلا بالإيمان، فالأعمال بدون الإيمان كأغصان شجرة قطع أصلها وكبناء بني على موج الماء، فالإيمان هو الأصل والأساس والقاعدة التي يبنى عليه كل شيء، وهذا القيد ينبغي التفطن له في كل عمل أطلق، فإنه مقيد به.

– فالإيمان شرط لقبول الأعمال وصحتها.

كما في هذه الآية.

وكما قال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

وقال تعالى (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً).

وقال تعالى (وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَاب).

وقال تعالى (مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ...).

وقال تعالى (وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى).

ومفهوم هذه الآية وأمثالها، أن غير المؤمن إذا قدم عملا صالحاً في الدنيا لا ينفعه في الآخرة لفقد شرط الإيمان، قال تعالى: (وَقَدِمْنا إِلى ما عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْناهُ هَباءً مَنْثُوراً) لِأَنَّ الْكُفْرَ سَيِّئَةٌ لَا تَنْفَعُ مَعَهَا حَسَنَةٌ .

وعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: (قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ابْنُ جُدْعَانَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ يَصِلُ الرَّحِمَ وَيُطْعِمُ الْمِسْكِينَ فَهَلْ ذَاكَ نَافِعُهُ قَالَ "لاَ يَنْفَعُهُ، إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ يَوْمًا رَبِّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين") رواه مسلم.

قال النووي: معنى الحديث أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة، لكونه كافراً، وهو معنى قوله ﷺ: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين، أي لم يكن مصدقاً بالبعث، ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمل، فمن شروط قبول العمل الإيمان. (نووي)

الشرط الثاني : أن تكون خالصة لله تعالى ليس فيها شرك ولا رياء ، فإذا خالطها شرك ورياء بطلت كالحدث يبطل الطهارة .فإن الحدث يبطل الوضوء .

قال تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) .

وقال تعالى (فاعبد الله مخلصاً له الدين) .

الشرط الثالث : المتابعة للرسول ﷺ

لحديث عائشة . قالت : قال رسول الله ﷺ (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) متفق عليه .

فهذا الحديث أصل في رد كل البدع والمحدثات .

فالعمل إذا صار مخلصاً لكنه ليس على اتباع للرسول ﷺ فهو مردود – وكذلك العمل إذا كان على اتباع للرسول لكنه غير مخلص فيه فهو مردود .

فائدة :

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَمَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ أَقْسَامٌ:

فَتَارَةً يَكُونُ رِيَاءً مَحْضًا، بِحَيْثُ لَا يُرَادُ بِهِ سِوَى مُرَاآتِ الْمَخْلُوقِينَ لِغَرَضٍ دُنْيَوِيٍّ.

كَحَالِ الْمُنَافِقِينَ فِي صَلَاتِهِمْ، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا).

وَقَالَ تَعَالَى (فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ – الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ – الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ).

وَكَذَلِكَ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْكُفَّارَ بِالرِّيَاءِ فِي قَوْلِهِ (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ).

وَهَذَا الرِّيَاءُ الْمَحْضُ لَا يَكَادُ يَصْدُرُ مِنْ مُؤْمِنٍ فِي فَرْضِ الصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ، وَقَدْ يَصْدُرُ فِي الصَّدَقَةِ الْوَاجِبَةِ أَوِ الْحَجِّ، وَغَيْرِهِمَا مِنَ الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ، أَوِ الَّتِي يَتَعَدَّى نَفْعُهَا، فَإِنَّ الْإِخْلَاصَ فِيهَا عَزِيزٌ.

وَهَذَا الْعَمَلُ لَا يَشُكُّ مُسْلِمٌ أَنَّهُ حَابِطٌ وَأَنَّ صَاحِبَهُ يَسْتَحِقُّ الْمَقْتَ مِنَ اللَّهِ وَالْعُقُوبَةَ.

وَتَارَةً يَكُونُ الْعَمَلُ لِلَّهِ، وَيُشَارِكُهُ الرِّيَاءُ.

فَإِنْ شَارَكَهُ مِنْ أَصْلِهِ فَالنُّصُوصُ الصَّحِيحَةُ تَدُلُّ عَلَى بُطْلَانِهِ وَحُبُوطِهِ أَيْضًا.

وَفِي " صَحِيحِ مُسْلِمٍ " عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ (يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشَرِيكَهُ) وَخَرَّجَهُ ابْنُ مَاجَهْ، وَلَفْظُهُ (فَأَنَا مِنْهُ بَرِيءٌ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَك).

وَأَمَّا إِنْ كَانَ أَصْلُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، ثُمَّ طَرَأَتْ عَلَيْهِ نِيَّةُ الرِّيَاءِ:

فَإِنْ كَانَ خَاطِرًا وَدَفَعَهُ، فَلَا يَضُرُّهُ بِغَيْرِ خِلَافٍ.

وَإِنِ اسْتَرْسَلَ مَعَهُ، فَهَلْ يُحْبَطُ بِهِ عَمَلُهُ أَمْ لَا يَضُرُّهُ ذَلِكَ وَيُجَازَى عَلَى أَصْلِ نِيَّتِهِ؟ فِي ذَلِكَ اخْتِلَافٌ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ مِنَ السَّلَفِ قَدْ حَكَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَابْنُ جَرِيرٍ الطَّبَرِيُّ، وَرَجَّحَا أَنَّ عَمَلَهُ لَا يَبْطُلُ بِذَلِكَ، وَأَنَّهُ يُجَازَى بِنِيَّتِهِ الْأُولَى وَهُوَ مَرْوِيٌّ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَغَيْرِهِ.

وَيُسْتَدَلُّ لِهَذَا الْقَوْلِ بِمَا خَرَّجَهُ أَبُو دَاوُدَ فِي " مَرَاسِيلِهِ " عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ «أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ بَنِي سَلَمَةَ كُلَّهُمْ يُقَاتِلُ، فَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ لِلدُّنْيَا، وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ نَجْدَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُقَاتِلُ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ، فَأَيُّهُمُ الشَّهِيدُ؟ قَالَ: كُلُّهُمْ إِذَا كَانَ أَصْلُ أَمْرِهِ أَنْ تَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا».

وَذَكَرَ ابْنُ جَرِيرٍ أَنَّ هَذَا الِاخْتِلَافَ إِنَّمَا هُوَ فِي عَمَلٍ يَرْتَبِطُ آخِرُهُ بِأَوَّلِهِ، كَالصَّلَاةِ وَالصِّيَامِ وَالْحَجِّ، فَأَمَّا مَا لَا ارْتِبَاطَ فِيهِ كَالْقِرَاءَةِ وَالذِّكْرِ وَإِنْفَاقِ الْمَالِ وَنَشْرِ الْعِلْمِ، فَإِنَّهُ يَنْقَطِعُ بِنِيَّةِ الرِّيَاءِ الطَّارِئَةِ عَلَيْهِ، وَيَحْتَاجُ إِلَى تَجْدِيدِ نِيَّةٍ.

فَأَمَّا إِذَا عَمِلَ الْعَمَلَ لِلَّهِ خَالِصًا، ثُمَّ أَلْقَى اللَّهُ لَهُ الثَّنَاءَ الْحَسَنَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ.

فَفَرِحَ بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، وَاسْتَبْشَرَ بِذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ ذَلِكَ.

وَفِي هَذَا الْمَعْنَى جَاءَ حَدِيثُ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ (سُئِلَ عَنِ الرَّجُلِ يَعْمَلُ الْعَمَلَ لِلَّهِ مِنَ الْخَيْرِ وَيَحْمَدُهُ النَّاسُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: تِلْكَ عَاجِلُ بُشْرَى الْمُؤْمِنِ). خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ ... (جامع العلوم والحكم) .

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: اتصال الرياء بالعبادة على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن يكون الباعث على العبادة مراءاة الناس مِن الأصل؛ كمن قام يصلِّي مراءاة الناس، مِن أجل أن يمدحه الناس على صلاته، فهذا مبطل للعبادة.

الوجه الثاني: أن يكون مشاركاً للعبادة في أثنائها، بمعنى: أن يكون الحامل له في أول أمره الإخلاص لله، ثم طرأ الرياء في أثناء العبادة، فهذه العبادة لا تخلو من حالين:

الحال الأولى: أن لا يرتبط أول العبادة بآخرها، فأولُها صحيح بكل حال، وآخرها باطل.

مثال ذلك: رجل عنده مائة ريال يريد أن يتصدق بها، فتصدق بخمسين منها صدقةً خالصةً، ثم طرأ عليه الرياء في الخمسين الباقية؛ فالأُولى صدقة صحيحة مقبولة، والخمسون الباقية صدقة باطلة لاختلاط الرياء فيها بالإخلاص.

الحال الثانية: أن يرتبط أول العبادة بآخرها: فلا يخلو الإنسان حينئذٍ مِن أمرين:

الأمر الأول: أن يُدافع الرياء ولا يسكن إليه، بل يعرض عنه ويكرهه: فإنه لا يؤثر شيئاً لقوله ﷺ إن الله تجاوز عن أمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم.

الأمر الثاني: أن يطمئنَّ إلى هذا الرياء ولا يدافعه: فحينئذٍ تبطل جميع العبادة؛ لأن أولها مرتبط بآخرها.

مثال ذلك: أن يبتدئ الصلاة مخلصاً بها لله تعالى، ثم يطرأ عليها الرياء في الركعة الثانية، فتبطل الصلاة كلها لارتباط أولها بآخرها.

الوجه الثالث: أن يطرأ الرياء بعد انتهاء العبادة: فإنه لا يؤثر عليها ولا يبطلها؛ لأنها تمَّت صحيحة فلا تفسد بحدوث الرياء بعد ذلك.

وليس مِن الرياء أن يفرح الإنسان بعلم الناس بعبادته؛ لأن هذا إنما طرأ بعد الفراغ من العبادة.

وليس مِن الرياء أن يُسرَّ الإنسان بفعل الطاعة؛ لأن ذلك دليل إيمانه، قال النبي ﷺ مَن سرَّته حسنته وساءته سيئته فذلك المؤمن.

وقد سئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: " تلك عاجل بشرى المؤمن " .

م /فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار) .

==========

أي إذا عرفت خطر الشرك ، ومن خطره ما ذكره المصنف أنه مفسد للعبادة ومحبط لها وصاحبه إذا مات على الشرك الأكبر ولم يتب فهو خالد في جهنم .

قال تعالى (ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون) .

وقال تعالى (لئن أشركت ليحبطن عملك) .

وقال تعالى (إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار) .

م / عرفت أن أهم ما يجب عليك معرفة ذلك، لعل الله أن يخلصك من هذه الشبكة وهي الشرك بالله الذي قال الله تعالى فيه [إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء] وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله في كتابه .

==========

أي ما دمت عرفت خطر الشرك وعظيم خطره ، فإنه يجب عليك أن تعرف هذا الشرك الذي هو بهذه المنزلة [يحبط العمل ويفسده وصاحبه مخلد في النار] من أجل ماذا ؟؟

أن تنجو منه وتسلم .

الشرك تعريفه : تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله .

وينقسم إلى قسمين :

أكبر: وصاحبه إذا مات من غير توبة فهو من أهل النار خالداً مخلداً [وهذا مراد المؤلف] فالشرك الأكبر كالسجود لغير الله .. كأن يعبد غير الله .. أو يذبح لغير الله .. الشرك الأكبر منه أيضاً اتخاذ العبد من دون الله ندا يسويه برب العالمين يحبه كحب الله ويخشاه كخشية الله ويلتجئ إليه ويدعوه ويخافه ويرجوه ويرغب إليه ويتوكل عليه أو يطيعه في معصية الله أو يتبعه على غير مرضاة الله فهذا هو الشرك الأكبر.

شرك أصغر : وصاحبه إن لقي الله فهو تحت المشيئة ، إن شاء عفا عنه وأدخله الجنة ، وإن شاء عذبه ولكن مآله إلى الجنة ، لأن الشرك الأصغر لا يخلد صاحبه في النار .

مثال :

الحلف بغير الله ، إن لم يقصد تعظيم المحلوف به وإلا صار شركاً أكبر .

قال رسول الله ﷺ (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) .

ذكر المصنف من خطر الشرك أن الله لا يغفر لصاحبه إذا مات من غير توبة .

فلذلك على المسلم الموحد أن يعرف الشرك وأنواعه ووسائله ليتجنبه وحتى لا يقع فيه :

فإن الإنسان الذي لا يعرف خطر الشيء ربما يقع فيه .

ولذلك جاء في الحديث عن حذيفة أنه قال (كان الناس يسألون رسول الله عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فأقع فيه).

ومنه أخذ الشاعر قولتَه المشهورة :

عرفتُ الشرَّ لا للشرِّ لكنْ لتوقيهِ

ومن لا يعرفُ الخيرَ من الشرِ يقعْ فيهِ

ويمكن معرفة هذا الشرك وخطره بقواعد ذكرها الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله ، وهذه القواعد بيّن رحمه الله أنها مأخوذة من القرآن الكريم ، فليست من عنده .

فالقرآن بيّن الشرك بياناً شافياً واضحاً ليحذره الناس ويتجنبوه .

م/ الْقَاعِدَةُ الأُولَى :

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ بِأَنَّ اللهَ . تَعَالَى . هُوَ الْخَالِقُ، الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يُدْخِلَهُمْ فِي الإِسْلامِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ .

==========

ذكر المصنف – رحمه الله – أن الكفار يقرون ويعترفون أن الخالق هو الله لكن ذلك لم يجعلهم مسلمين ، لأنهم أشركوا مع الله تعالى .

فتوحيد الربوبية هو : إفراد الله بأفعاله (كالخلق والرزق والإماتة) كان الكفار يقرون ويعترفون به .

والهدف من القاعدة : بيان أن الإقرار بتوحيد الربوبية فقط لا يكفي في التوحيد وإبعاد صفة الشرك عن الشخص .

والرسل إنما جاءت بتوحيد الألوهية وهو التوحيد الذي وقع فيه النزاع بين الأمم ورسلهم .

فالإقرار بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية لا يُدخل في الإسلام فالكفار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، ويؤمنون بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت ... وليس هناك أحد أشرك في توحيد الربوبية [إلا شواذ من الخلق] فكل الأمم تقر بالربوبية.

قال المقريزي: ولا ريب أن توحيد الربوبية لم ينكره المشركون، بل أقروا بأنه سبحانه وحده خالقهم، وخالق السموات والأرض، والقائم بمصالح العالم كله، وإنما أنكروا توحيد الألوهية) ... إلى أن قال: (من عدل به غيره فقد أشرك في ألوهيته ولو وحد في ربوبيته ، فتوحيد الربوبية هو الذي اجتمعت فيه الخلائق مؤمنها وكافرها ، وتوحيد الألوهية مفترق الطرق بين المؤمنين والمشركين) . انتهى .

لأن الإقرار بالربوبية كان مسلما به عند المشركين لم يرسل الله رسولا لتحقيق هذا التوحيد، ولم تعرض له الكتب السماوية كما عرضت لتوحيد العبادة لأنه تحصيل حاصل.

والمصيبة أن أهل الكلام أفنوا أعمارهم لتحقيق هذه القضية المسلَّم بها حتى عند المشركين. وليتهم وقفوا عند هذا الباب بل زعموا أن توحيد الربوبية هو الغاية العظمى من بعثة الرسل، وأنهم إذا أثبتوه بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد.

- وذكر المصنف الدليل على إقرار المشركين بتوحيد الربوبية :

قال تعالى (**قلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ**) .

(قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ) يحتج تعالى على المشركين باعترافهم بوحدانيته وربوبيته على وحدانية الإله فقال: قل –أيها الرسول– لهؤلاء المشركين: مَن يرزقكم من السماء، بما يُنزله من المطر، ومن الأرض بما ينبته فيها من أنواع النبات والشجر تأكلون منه أنتم وأنعامكم؟

قال ابن عاشور: تذكير بأحوال الرزق؛ ليكون أقوى حضوراً في الذهن، فالرزق من السماء المطر، والرزق من الأرض النبات كله من حب وثمر وكلأ.

قال ابن كثير: أي: من ذا الذي ينزل من السماء ماء المطر، فيشق الأرض شقًّا بقدرته ومشيئته، فيخرج منها (حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا وَزَيْتُونًا وَنَخْلا وَحَدَائِقَ غُلْبًا وَفَاكِهَةً وَأَبًّا)، أإله مع الله؟ فسيقولون: الله (أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ)؟

(أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ) أي: الذي وهبكم هذه القوة السامعة، والقوة الباصرة، ولو شاء لذهب بها ولسلبكم إياها، كما قال تعالى (قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأبْصَارَ وَالأفْئِدَةَ قَلِيلا مَا تَشْكُرُونَ).

وقال (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ).

قال أبو حيان: ثم ذكر ملكه لهاتين الحاستين الشريفتين: السمع الذي هو سبب مدارك الأشياء، والبصر الذي يرى ملكوت السموات والأرض، ومعنى ملكهما أنه متصرف فيهما بما يشاء تعالى من إبقاء وحفظ وإذهاب.

وخص هاتين الحاستين بالذكر، لأن لهما أعظم الأثر في حياة الإنسان، ولأنهما قد اشتملتا في تركيبهما على ما بهر العقول، ويشهد بقدرته تعالى وعجيب صنعه في خلقه.

قال الشوكاني: وَخُصَّ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ بِالذِّكْرِ لِمَا فِيهِمَا مِنَ الصَّنْعَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ الْعَظِيمَةِ، أَيْ: مَنْ يَسْتَطِيعُ مَلْكَهُمَا وَتَسْوِيَتَهُمَا عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ الْعَجِيبَةِ، وَالْخِلْقَةِ الْغَرِيبَةِ حَتَّى يَنْتَفِعُوا بِهِمَا هَذَا الِانْتِفَاعَ الْعَظِيمَ، وَيَحْصِّلُونَ بِهِمَا مِنَ الْفَوَائِدِ مَا لَا يَدْخُلُ تَحْتَ حَصْرِ الْحَاصِرِينَ

(وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ) أي: بقدرته العظيمة، ومنته العميمة.

وهذا دليل ثالث على قدرة الله ووحدانيته.

أي: وقل لهم كذلك من سوى الله تعالى يملك إخراج النبات وهو كائن حي من الأرض الميتة، وإخراج الإنسان وهو كائن حي من النطفة وبالعكس، وإخراج الطير من البيضة وبالعكس.

قال القرطبي: أي النباتَ من الأرض، والإنسان من النطفة، والسُّنْبُلَةَ من الحبّة، والطيرَ من البيضة، والمؤمنَ من الكافر.

وقال الرازي: قوله تعالى (وَمَن يُخْرِجُ الحي مِنَ الميت وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي) وفيه وجهان:

الأول: أنه يخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة (وَيُخْرِجُ الميت مِنَ الحي) أي يخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر.

والثاني: أن المراد منه أنه يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن، والأكثرون على القول الأول، وهو إلى الحقيقة أقرب.

وقال الشوكاني: قوله تعالى (وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) الْإِنْسَانَ مِنَ النُّطْفَةِ، وَالطَّيْرَ مِنَ الْبَيْضَةِ، وَالنَّبَاتَ مِنَ الْحَبَّةِ، أَوِ الْمُؤْمِنَ مِنَ الْكَافِرِ (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) أَيِ: النُّطْفَةَ مِنَ الْإِنْسَانِ، أَوِ الْكَافِرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ، وَالْمُرَادُ مِنْ هَذَا الِاسْتِفْهَامِ: عَمَّنْ يُحْيِي وَيُمِيتُ.

وقال السعدي: قوله تعالى (وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ) كإخراج أنواع الأشجار والنبات من الحبوب والنوى، وإخراج المؤمن من الكافر، والطائر من البيضة، ونحو ذلك (وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ) عكس هذه المذكورات.

(وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ) أي: ومَن يدبّر أمر السماء والأرض وما فيهن، وأمركم وأمر الخليقة جميعًا؟

وهذا دليل رابع على قدرة الله ووحدانيته أي: وقل لهم –أيضاً– من الذي يتولى تدبير أمر هذا الكون من إحياء وإماتة، وصحة ومرض، وغنى وفقر، وليل ونهار، وشمس وقمر ونجوم ...

هذه الجملة الكريمة من باب التعميم بعد التخصيص، لأن كل ما سبق من نعم يندرج فيها.

قال ابن كثير: أي من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه، وهو المتصرف الحاكم الذي لا معقب لحكمه، ولا يُسأل عما يفعل وهم يُسْأَلُون (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ) فالملك كله العلوي والسفلي، وما فيهما من ملائكة وإنس وجان، فقيرون إليه، عبيد له، خاضعون لديه.

(فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ) أي: فسوف يجيبونك بأن الذي يفعل ذلك كله هو الله، أي: هم يعلمون ذلك ويعترفون به.

(فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ) أي: أفلا تخافون منه أن تعبدوا معه غيره بآرائكم وجهلكم؟.

أي: أتعلمون وتعترفون بأن الله تعالى هو الخالق لكل ما سبق، ومع ذلك تشركون معه آلهة في العبادة، دون أن تتقوا عذابه يوم القيامة... إن مسلكك هذا إنما يدل على ضعف في التفكير، وانطماس في العقول، وجهالة ليس بعدها جهالة.

وجه الشاهد : (فسيقولون الله) فهم اعترفوا بأن الله هو الخالق الرازق الذي ينزل الغيث ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، أقروا بذلك ، ومع ذلك هم يشركون معه غيره .

والعقل يقتضي : أن الذي يخلق ويرزق ويحيي ويميت ويتصرف في الكون هو الذي يستحق أن يفرد بالعبادة وحده دون سواه .

ومن الأدلة :

قال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله) .

وقال تعالى (ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) .

قال الشنقيطي: صرَّحَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ، بِأَنَّ الْكُفَّارَ يُقِرُّونَ بِأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا، هُوَ رَبُّهُمُ الرَّزَّاقُ الْمُدَبِّرُ لِلْأُمُورِ الْمُتَصَرِّفُ فِي مُلْكِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَهُوَ صَرِيحٌ فِي اعْتِرَافِهِمْ بِرُبُوبِيَّتِهِ، وَمَعَ هَذَا أَشْرَكُوا بِهِ جَلَّ وَعَلَا.

وَالْآيَاتُ الدَّالَّةُ عَلَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ مُقِرُّونَ بِرُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ وَعَلَا وَلَمْ يَنْفَعْهُمْ ذَلِكَ لِإِشْرَاكِهِمْ مَعَهُ غَيْرَهُ فِي حُقُوقِهِ جَلَّ وَعَلَا – كَثِيرَةٌ، كَقَوْلِهِ (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ).

وَقَوْلِهِ (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ).

وَقَوْلِهِ (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ إِلَى قَوْلِهِ: فَأَنَّى تُسْحَرُونَ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَلِذَا قَالَ تَعَالَى (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ).

وَالْآيَاتُ الْمَذْكُورَةُ صَرِيحَةٌ فِي أَنَّ الِاعْتِرَافَ بِرُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ وَعَلَا لَا يَكْفِي فِي الدُّخُولِ فِي دِينِ الْإِسْلَامِ إِلَّا بِتَحْقِيقِ مَعْنَى لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ نَفْيًا وَإِثْبَاتًا.

وأَمَّا تَجَاهُلُ فِرْعَوْنَ – لَعَنَهُ اللَّهُ – لِرُبُوبِيَّتِهِ جَلَّ وَعَلَا، فِي قَوْلِهِ (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) فَإِنَّهُ تَجَاهُلُ عَارِفٍ ; لِأَنَّهُ عَبْدٌ مَرْبُوبٌ، كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ) وَقَوْلِهِ (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا). (أضواء البيان)

فائدة :

قال حافظ حكمي : وَالْمَقْصُودُ أَنَّ الرُّبُوبِيَّةَ وَالْإِلَهِيَّةَ مُتَلَازِمَانِ لَا يَنْفَكُّ نَوْعٌ مِنْهُمَا عَنِ الْآخَرِ، وَأَنَّ تَوْحِيدَ الرُّبُوبِيَّةِ لَمْ يُنْكِرْهُ أَحَدٌ إِلَّا مُكَابَرَةً كَفِرْعَوْنَ وَنُمْرُودَ، وَالثَّنَوِيَّةِ الَّذِينَ اعْتَقَدُوا لِلْوُجُودِ خَالِقَيْنِ اثْنَيْنِ، تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يَقُولُ الظَّالِمُونَ وَالْجَاحِدُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

فائدة :

أن توحيد الربوبية دليل على توحيد العبادة فإن الله سبحانه وتعالى احتج على المشركين الذي أخلوا بتوحيد الألوهية بإقرارهم بالربوبية .

كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاء وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ) .

فأمر سبحانه وتعالى بعبادته وذكر البرهان على أنه مستحق للعبادة وهو قوله (الَّذِي خَلَقَكُمْ) إلى قوله: (رِزْقاً لَكُمْ) وهو برهان على بطلان إلهية ما سواه ولهذا قال (فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً) وقوله تعالى (وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) إلزاما لهم بما يقرون به.

فائدة :

أن إقرار الناس بالربوبية أسبق من إقرارهم بتوحيد الألوهية .

وفي ذلك يقول ابن تيمية: ولما كان علم النفوس بحاجتهم وفقرهم إلى الرب قبل علمهم بحاجتهم وفقرهم إلى الإله المعبود وقصدهم لدفع حاجتهم العاجلة قبل الآجلة كان إقرارهم بالله من جهة ربوبيته أسبق من إقرارهم به من جهة ألوهيته...) إلى أن قال: (ولهذا إنما بعث الرسل يدعونهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له الذي هو المقصود المستلزم الإقرار بالربوبية وقد أخبر عنهم أنهم: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ) .

(وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ) .

وقال (وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ) .

فأخبرهم أنهم مقرون بتوحيد الربوبية وأنهم مخلصون له الدين إذا مسهم الضر في دعائهم واستعانتهم، ثم يعرضون عن عبادته في حال حصول أغراضهم وكثير من المتكلمين إنما يقررون الوحدانية من جهة الربوبية، أما الرسل فهم دعوا إليها من جهة الألوهية .

فائدة :

توحيد الألوهية : هو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية على خلقه أجمعين ، وإفراده وحده بالعبادة كلها وإخلاص الدين لله تعالى ... فالمستحِقُّ للعِبادةِ هو اللهُ تعالى؛ قال تعالى :ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ .

قال ابنُ تَيميَّةَ: (توحيدُ الأُلوهيَّةِ أن يَعبُدَ اللهَ ولا يُشرِكَ به شَيئًا، فيُطيعَه ويُطيعَ رسُلَه، ويَفعَلَ ما يُحِبُّه ويَرضاه) .

وقال السَّفاريني: (توحيدُ الإلَهيَّةِ: إفرادُه –تقدَّس وتعالى– بالعِبادةِ والتَّألُّه له، والخُضوعِ والذُّلِّ، والحُبِّ والافتقارِ، والإقبالِ والتوَجُّهِ إليه تعالى) .

وقال الصَّنعاني: (توحيدُ العِبادةِ، ومعناه: إفرادُ اللهِ وَحْدَه بجَميعِ أنواعِ العِباداتِ) .

وقال محمَّدُ بنُ عبدِ الوهَّابِ: (هو توحيدُ اللهِ تعالى بأفعالِ العِبادِ؛ كالدُّعاءِ، والنَّذرِ والنَّحرِ، والرَّجاء والخَوفِ والتَّوكُّل، والرَّغْبة والرَّهبةِ والإنابةِ) .

وهذا التَّوحيدُ يُسَمَّى باعتبارِ إضافتِه إلى اللهِ تعالى بـ (توحيدِ الأُلوهيَّةِ).

ويُسَمَّى باعتبارِ إضافتِه إلى الخَلْقِ بـ (توحيدِ العِبادةِ)، و(توحيدِ العَمَلِ)، و(توحيدِ القَصْدِ)، و(توحيدِ الإرادةِ والطَّلَبِ) .

فتوحيد الألوهية : هو الغاية من خلق الثقلين .

كما قال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) .

والعِبادةُ هي: "التذَلُّلُ لله عزَّ وجَلَّ محَبَّةً وتعظيمًا بفِعلِ أوامِرِه واجتِنابِ نواهيه على الوَجْهِ الذي جاءت به شَرائِعُه .

وهو المقصود الأعظم من إرسال الرسل وإنزال الكتب .

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ).

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ).

وقال ﷺ (أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِابْنِ مَرْيَمَ الأَنْبِيَاءُ أَوْلاَدُ عَلاَّتٍ، .. وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ).

(الأنبياء أولاد عَلاّت) أولاد العلات: هم الأخوة للأب من أمهات شتى.

معنى الحديث: أن الأنبياء أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، فإنهم متفقون في أصول التوحيد وأما فروع الشرائع فوقع فيها الخلاف.

فائدة :

وقال محمود شكري الألوسي: توحيدُ الرُّبوبيَّةِ هو الذي أقرَّت به الكُفَّارُ جميعُهم ولم يخالِفْ منهم أحَدٌ في هذا الأصلِ إلَّا الثَّنويَّةُ وبعضُ المجوسِ، وأمَّا غيرُهما من سائرِ فِرَقِ الكُفرِ والشِّركِ فقد اتَّفقوا على أنَّ خالِقَ العالَمِ ورازِقَهم ومُدَبِّرَ أمْرِهم ونافِعَهم وضارَّهم ومُجيرَهم واحِدٌ... كما قال سُبحانَه وتعالى (ولَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) وأمَّا توحيدُ الألوهيَّةِ فهو إفرادُ العبادةِ لله الواحِدِ الصَّمَدِ؛ لأنَّ الإلهَ مَن يُقصَد للعبادةِ... إذا عَلِمْتَ هذا تبيَّن لك أنَّ المعركةَ بين أهلِ التوحيدِ والمشركين في الألوهيَّةِ فقط . (فتح المنان)

م/ الْقَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ :

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوَجَّهْنَا إِلَيْهِمْ إلا لِطَلَبِ الْقُرْبَةِ وَالشَّفَاعَةِ، فَدَلِيلُ الْقُرْبَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَآء مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴾. وَدَلِيلُ الشَّفَاعَةِ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاء شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللّهِ ﴾.

==========

أراد المصنف أن يبين في هذه القاعدة : ما يحتج به أهل الشرك على شركهم ، وهذه الحجة متكررة ليست جديدة ، فكل الذين صرفوا شيئاً من العبادة لغير الله ، احتجوا بقولهم هؤلاء أولياء الله ، هؤلاء نرجو أن يقربونا إلى الله ، هؤلاء نرجو شفاعتهم يوم القيامة .

فأراد المصنف أن يبين أن هذه حجتهم ، وأنها باطلة ، وذكر الأدلة على بطلانها ، وأن هذا هو عين الشرك .

أن المشركين الذين سماهم الله مشركين وحكم بخلودهم في جهنم ، أنهم يقولون :

[ما دعوناهم] أي استغثنا بهم وتوجهنا إليهم .

[إلا لطلب القربة والشفاعة] أي أن يشفعوا لنا عند الله ، لا أنهم أرباباً ينفعون ويضرون ، فهم يقولون : نعلم أن هؤلاء الأولياء لا يخلقون ، ونعلم أنهم لا يرزقون ، وأنهم لا يحيون ولا يميتون ، لكن نتقرب إليهم لطلب القربى والشفاعة .

القربة : سؤال المغفرة والنجاة من النار : أي يريدوا أن يتوسطوا لهم في الأمور الأخروية حتى يكونوا قريبين من الله في الآخرة .

كأن يأتوا الصالحين ويقولوا لهم : اشفعوا لنا عند الله أن يغفر لنا أو أن يدخلنا الجنة .

الشفاعة : السؤال بالأمور الدنيوية .

كأن يأتوا إلى الأولياء ويقولوا لهم اشفعوا لنا عند الله أن يرزقنا في الدنيا أو أن يهب لنا أولاداً أو يكشف ما بنا من مرض .

والدليل قوله تعالى (**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار**) .

(**والذين اتخذوا من دونه أولياء**) أي : يتولونهم بعبادتهم ودعائهم ، اعتذروا عن عبادتهم بقولهم :

(**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**) أي : لترفع حوائجنا لله ، وتشفع لنا عنده ، وإلا فنحن نعلم أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تملك من الأمر شيئاً .

[إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار] فكفرهم الله بهذا الطلب .

قال السعدي : أي فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص ، وتجرؤا على أعظم المحرمات ، وهو الشرك ، وقاسوا الذي ليس كمثله شيء ، الملك العظيم بالمملوك ، وزعموا بعقولهم الفاسدة ، ورأيهم السقيم ، أن الملوك كما أنه لا يوصل إليهم إلا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم ، أن الله تعالى كذلك ، وهذا القياس من أفسد الأقيسة ، وهو يتضمن التسوية بين الخالق والمخلوق ، مع ثبوت الفرق العظيم ، عقلاً ونقلاً وفطرة .

فإن الملوك إنما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم : لأنهم لا يعلمون أحوالهم ، فيحتاجون إلى من يعلمهم بأحوالهم .

وأما الرب تعالى ، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها الذي لا يحتاج إلى من يخبره بأحوال رعيته وعباده .

ودليل الشفاعة قوله تعالى (**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**) .

(**وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ**) أي: ويَعبُدُ المشرِكونَ مِن دُونِ الله آلهةً مِن الأصنامِ وغَيرِها، لا تَضُرُّهم إن تركوا عِبادتَها، ولا تنفَعُهم في الدُّنيا ولا في الآخرةِ إنْ عَبَدوها، لأنها جمادات لا قدرة لها على ذلك.

– والمقصود بوصفها بأنها لا تضر ولا تنفع: بطلان عبادتها، لأن من شأن المعبود أن يملك الضر والنفع، وأن يكون مثيباً على الطاعة ومعاقباً على المعصية.

كما قال تعالى (ويَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُون).

وقال تعالى (قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم).

وقال سُبحانه (وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِين).

(**وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ**) أي: ويقولُ المشرِكونَ: هؤلاء الذين نعبُدُهم يَشفَعونَ لنا عند الله.

والشفعاء: جمع شفيع، وهو من يشفع لغيره في دفع ضرر أو جلب نفع.

أي: أنهم يدينون بالعبادة لأصنام لا تضرهم إن تركوا عبادتها، ولا تنفعهم إن عبدوها، فإذا ما طلب منهم أن يجعلوا عبادتهم لله وحده قالوا: إننا نعبد هذه الأصنام لتكون شفيعة لنا عند الله في دنيانا، بأن نتوسل إليه بها في إصلاح معاشنا، وفي آخرتنا إن كان هناك ثواب وعقاب يوم القيامة.

قال ابن كثير : ينكر تعالى على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره ظانين أن تلك الآلهة تنفعهم شفاعتها عند الله ، فأخبر تعالى أنها لا تضر ولا تنفع ولا تملك شيئاً ، ولا يقع شيء مما يزعمون فيها ولا يكون هذا أبداً .

وقال الصنعاني : فجعل الله تعالى اتخاذهم للشفعاء شركاء ، ونزه نفسه عنه ، لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه ، فكيف يثبتون شفعاء لهم لم يأذن الله لهم في الشفاعة ولا هم أهل لها ، ولا يغنون عنهم من الله شيئاً . انتهى .

وقد قال تعالى مبطلاً للشفاعة الشركية وقاطعاً منافذ الشرك فيها بالكلية (**قلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ . وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ..**) .

يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه ﷺ أن يقول للمشركين على وجه التحدي: اطلبوا من آلهتكم التي زعمتم أنها تنفعكم وتكشف الضر عنكم، فإنهم لا يقدرون على ذلك.

لأنه لا بد من توفر أربعة شروط في المدعو حتى يقدر على إجابة من دعاه، وهم:

الشرط الأول: الملك.

وقد نفاه الله بقوله (لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض).

الشرط الثاني: إذا لم يكن مالكاً فيكون شريكاً للمالك.

وقد نفاه الله بقوله (ومالهم فيهما من شرك).

الشرط الثالث: إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً للمالك، فيكون عوناً ووزيراً.

وقد نفاه الله بقوله (وماله منهم من ظهير).

الشرط الرابع: إذا لم يكن مالكاً ولا شريكاً ولا عوناً، فيكون شفيعاً.

وقد نفى الله الشفاعة عنده إلا بإذنه.

فبنفي هذه الأمور بطلت دعوة غير الله، إذ ليس عند غيره من النفع والضر ما يوجب قصده بشيء من العبادة.

كما قال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون. ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياتاً ولا نشوراً).

قال ابن القيم رحمه الله :وَقَدْ قَطَعَ اللَّهُ تَعَالَى كُلَّ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَعَلَّقَ بِهَا الْمُشْرِكُونَ جَمِيعًا، قَطْعًا يَعْلَمُ مَنْ تَأَمَّلَهُ وَعَرَفَهُ أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا، أَوْ شَفِيعًا، فَهُوَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ :

فَقَالَ تَعَالَى (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ) (وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ) .

فَالْمُشْرِكُ إِنَّمَا يَتَّخِذُ مَعْبُودَهُ لِمَا يَعْتَقِدُ أَنَّهُ يَحْصُلُ لَهُ بِهِ مِنَ النَّفْعِ، وَالنَّفْعُ لَا يَكُونُ إِلَّا مِمَّنْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ هَذِهِ الْأَرْبَعِ إِمَّا مَالِكٌ لِمَا يُرِيدُهُ عِبَادُهُ مِنْهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مَالِكًا كَانَ شَرِيكًا لِلْمَالِكِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ شَرِيكًا لَهُ كَانَ مُعِينًا لَهُ وَظَهِيرًا، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ مُعِينًا وَلَا ظَهِيرًا كَانَ شَفِيعًا عِنْدَهُ.

فَنَفَى سُبْحَانَهُ الْمَرَاتِبَ الْأَرْبَعَ نَفْيًا مُتَرَتِّبًا، مُتَنَقِّلًا مِنَ الْأَعْلَى إِلَى مَا دُونَهُ، فَنَفَى الْمِلْكَ، وَالشِّرْكَةَ، وَالْمُظَاهَرَةَ، وَالشَّفَاعَةَ، الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُ، وَأَثْبَتَ شَفَاعَةً لَا نَصِيبَ فِيهَا لِمُشْرِكٍ، وَهِيَ الشَّفَاعَةُ بِإِذْنِهِ.

فَكَفَى بِهَذِهِ الْآيَةِ نُورًا، وَبُرْهَانًا وَنَجَاةً، وَتَجْرِيدًا لِلتَّوْحِيدِ، وَقَطْعًا لِأُصُولِ الشِّرْكِ وَمُوَدَّاهُ لِمَنْ عَقَلَهَا، وَالْقُرْآنُ مَمْلُوءٌ مِنْ أَمْثَالِهَا وَنَظَائِرِهَا، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْعُرُونَ بِدُخُولِ الْوَاقِعِ تَحْتَهُ، وَتَضَمُّنِهِ لَهُ، وَيَظُنُّونَهُ فِي نَوْعٍ وَفِي قَوْمٍ قَدْ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يُعْقِبُوا وَارِثًا، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ فَهْمِ الْقُرْآنِ. (مدارج السالكين)

فائدة :

قال تعالى في سورة الفرقان (... **وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا**) .

ذَكَرَ جَلَّ وَعَلَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ أَنَّ الْآلِهَةَ الَّتِي يَعْبُدُهَا الْمُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ ، مُتَّصِفَةٌ بِسِتَّةِ أَشْيَاءَ ، كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا بُرْهَانٌ قَاطِعٌ ، أَنَّ عِبَادَتَهَا مَعَ اللَّهِ ، لَا وَجْهَ لَهَا بِحَالٍ ، بَلْ هِيَ ظُلْمٌ مُتَنَاهٍ ، وَجَهْلٌ عَظِيمٌ ، وَشِرْكٌ يَخْلُدُ بِهِ صَاحِبُهُ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ، وَهَذَا بَعْدَ أَنْ أَثْنَى عَلَى نَفْسِهِ جَلَّ وَعَلَا بِالْأُمُورِ الْخَمْسَةِ الْمَذْكُورَةِ فِي الْآيَةِ الَّتِي قَبْلَهَا الَّتِي هِيَ بَرَاهِينُ قَاطِعَةٌ ، عَلَى أَنَّ الْمُتَّصِفَ بِهَا هُوَ الْمَعْبُودُ وَحْدَهُ ، وَالْأُمُورُ السِّتَّةُ الَّتِي هِيَ مِنْ صِفَاتِ الْمَعْبُودَاتِ مِنْ دُونِ اللَّهِ :

الْأَوَّلُ مِنْهَا : أَنَّهَا لَا تَخْلُقُ شَيْئًا ، أَيْ : لَا تَقْدِرُ عَلَى خَلْقِ شَيْءٍ .

وَالثَّانِي مِنْهَا : أَنَّهَا مَخْلُوقَةٌ كُلَّهَا ، أَيْ : خَلَقَهَا خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ .

وَالثَّالِثُ : أَنَّهَا لَا تَمْلِكُ لِأَنْفُسِهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا .

الرَّابِعُ وَالْخَامِسُ وَالسَّادِسُ : أَنَّهَا لَا تَمْلِكُ مَوْتًا ، وَلَا حَيَاةً ، وَلَا نُشُورًا ، أَيْ : بَعْثًا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَهَذِهِ الْأُمُورُ السِّتَّةُ الْمَذْكُورَةُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ، جَاءَتْ مُبَيَّنَةً فِي مَوَاضِعَ أُخَرَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى .

أَمَّا الْأَوَّلُ مِنْهَا : وَهُوَ كَوْنُ الْآلِهَةِ الْمَعْبُودَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا تَخْلُقُ شَيْئًا ، فَقَدْ جَاءَ مُبَيَّنًا فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى فِي سُورَةِ «فَاطِرٍ» (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا) .

أَمَّا الْأَمْرُ الثَّانِي مِنْهَا : وَهُوَ كَوْنُ الْآلِهَةِ الْمَعْبُودَةِ مِنْ دُونِهِ مَخْلُوقَةً .

فَقَدْ جَاءَ مُبَيَّنًا فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ : كَآيَةِ «النَّحْلِ» وَ «الْأَعْرَافِ» ، الْمَذْكُورَتَيْنِ آنِفًا .

أَمَّا آيَةُ «النَّحْلِ» فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى (وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) .

فَقَوْلُهُ : وَهُمْ يُخْلَقُونَ صَرِيحٌ فِي ذَلِكَ .

وَأَمَّا آيَةُ «الْأَعْرَافِ» فَهِيَ قَوْلُهُ تَعَالَى (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ .

وَأَمَّا الْأَمْرُ الثَّالِثُ مِنْهَا : وَهُوَ كَوْنُهُمْ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا .

فَقَدْ جَاءَ مُبَيَّنًا فِي مَوَاضِعَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا) .

وَكَقَوْلِهِ تَعَالَى (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ) .

وَمَنْ لَا يَنْصُرُ نَفْسَهُ فَهُوَ لَا يَمْلِكُ لَهَا ضَرًّا وَلَا نَفْعًا .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ) .

وَأَمَّا الرَّابِعُ وَالْخَامِسُ وَالسَّادِسُ مِنَ الْأُمُورِ الْمَذْكُورَةِ : أَعْنِي كَوْنَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا ، وَلَا حَيَاةً ، وَلَا نُشُورًا .

فَقَدْ جَاءَتْ أَيْضًا مُبَيَّنَةً فِي آيَاتٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ .

كَقَوْلِهِ تَعَالَى (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) .

فَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ : هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ يَدُلُّ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ شُرَكَاءَهُمْ لَيْسَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ الْمَذْكُورِ فِي الْآيَةِ ، وَمِنْهُ الْحَيَاةُ الْمُعَبَّرُ عَنْهَا بِـ : خَلَقَكُمْ ، وَالْمَوْتُ الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، وَالنُّشُورُ الْمُعَبَّرُ بِقَوْلِهِ : ثُمَّ يُحْيِيكُمْ .

وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ نُشُورًا بِقَوْلِهِ (أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ).

وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ، فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ) .

وَبَيَّنَ أَنَّهُ وَحْدَهُ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا) .

وَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا) وَقَوْلِهِ تَعَالَى (إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ) . (أضواء البيان)

ثم تكلم المصنف عن الشفاعة وأنواعها والسبب في ذلك : أن المشركين تعلقوا بشركهم بأذيال الشفاعة ، فأراد المصنف أن يبين ما هي الشفاعة المقبولة من الشفاعة غير المقبولة .

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَّةٌ، وَشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ الْمَنْفِيَّةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيْرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إلا اللهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾.

وَالشَّفَاعَةُ الْمُثْبَتَةُ: هِيَ الَّتِي تُطْلَبُ مِنَ اللهِ ، وَالشَّافِعُ مُكَرَّمٌ بِالشَّفَاعَةِ، وَالْمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَوْلَهُ وَعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾.

تعريف الشفاعة :

لغة : جعل الشيء شفعاً .

واصطلاحاً : التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة .

ذكر المصنف أن الشفاعة تنقسم إلى قسمين :

وهذا عرفناه بالتتبع والاستقراء ، فإن من تتبع القرآن وجد أن الشفاعة **تنقسم إلى قسمين** :

القسم الأول : الشفاعة المنفية :

عرفها المؤلف بقوله : هي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله .

ومن الشفاعة المنفية :

الشَّفاعةُ للكُفَّارِ.

الشَّفاعةُ بدونِ إذْنِ رَبِّ السَّمَواتِ والأرضِ.

سميت منفية : لأن الله نفاها ، كما يذكر المصنف دليلها .

المنفية : هي التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، كطلبها من ميت ، أو قبر أو صنم ، أو حجر .

فما طلب من غير الله من الشفاعات فإنها شفاعة منفية، فالذي يقول: يا رسول الله! اشفع لي، أو: يا علي ! اشفع لي، أو يا حسين ! اشفع لي، أو: يا عبد القادر الجيلاني ! اشفع لي، هؤلاء كلهم سألوا الشفاعة من غير الله ، وطلبهم الشفاعة من غير الله شرك .

قال ابنُ القَيِّم : الذي في قُلوبِ هؤلاء المشرِكينَ وسَلَفِهم أنَّ آلِهَتَهم تَشفَعُ لهم عِندَ الله، وهذا عَينُ الشِّركِ، وقد أنكَرَ اللهُ عليهم ذلك في كِتابِه وأبطَلَه، وأخبَرَ أنَّ الشَّفاعةَ كُلَّها له، وأنَّه لا يَشفَعُ عِندَه أحَدٌ إلَّا لِمَن أذِنَ اللهُ أن يَشفَعَ فيه، ورَضِيَ قَولَه وعَمَلَه، وهم أهلُ التَّوحيدِ الذينَ لَم يَتَّخِذوا من دونِ اللهِ شُفَعاءَ، فإنَّه سُبحانَه يَأذَنُ لِمَن شاءَ في الشَّفاعةِ لهم؛ حَيثُ لَم يَتَّخِذْهم شُفَعاءَ مِن دُونِه، فيَكونُ أسعَدَ النَّاسِ بشفاعةِ مَن يَأذَنُ اللهُ له صاحِبُ التَّوحيدِ الذي لَم يَتَّخِذ شَفيعًا من دونِ الله رَبِّه ومَولاه.

والشَّفاعةُ التي أثبَتها اللهُ ورَسولُه هيَ الشَّفاعةُ الصَّادِرةُ عن إذْنِه لِمَن وحَّدَه .

والتي نَفاها اللهُ هيَ الشَّفاعةُ الشِّرْكيَّةُ التي في قُلوبِ المشرِكينَ المتَّخِذينَ من دونِ اللهِ شُفَعاءَ، فيُعامَلونَ بنَقيضِ قَصدِهم من شُفَعائِهم، ويَفوزُ بها الموَحِّدونَ.

وتَأمَّلْ قَولَ النَّبيِّ ﷺ لأبي هُريرةَ – وقد سَأَلَه: من أسعَدُ النَّاسِ بشَفاعتِك يا رَسولَ اللهِ؟– قال (أسعَدُ النَّاسِ بشفاعتي من قال: لا إلَهَ إلَّا اللهُ خالِصًا من قَلبِه) كيفَ جَعَلَ أعظَمَ الأسبابِ التي تُنالُ بها شفاعتُه تَجريدَ التَّوحيدِ، عَكسَ ما عِندَ المشرِكينَ أنَّ الشَّفاعةَ تُنالُ باتِّخاذِهم أولياءَهم شُفعاءَ، وعِبادَتِهم ومُوالاتِهم من دونِ اللهِ، فقَلبَ النَّبيُّ ﷺ ما في زَعمِهمُ الكاذِبِ، وأخبَرَ أنَّ سَبَبَ الشَّفاعةِ هو تَجريدُ التَّوحيدِ، فحينَئِذٍ يَأذَنُ اللهُ للشَّافِعِ أن يَشفَعَ.

ومِن جَهلِ المشرِكِ اعتِقادُه أنَّ من اتَّخَذَه وَلِيًّا أو شَفيعًا أنَّه يَشفَعُ له، ويَنفَعُه عِندَ اللهِ، كما يَكونُ خَواصُّ الملوكِ والوُلاةِ تَنفَعُ شفاعتُهم من والاهم، ولَم يَعلَموا أنَّ اللهَ لا يَشفَعُ عِندَه أحَدٌ إلَّا بإذْنِه، ولا يَأذَنُ في الشَّفاعةِ إلَّا لِمَن رَضِيَ قَولَه وعَمَلَه، كما قال تعالى في الفَصلِ الأوَّلِ (مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَه إِلَّا بِإِذْنِهِ) وفي الفَصلِ الثَّاني(وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارتَضى) .

ودليل هذه الشفاعة :

قوله تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد:

الأولى: العناية والاهتمام به والتنبيه.

الثانية: الإغراء، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان، كما تقول يا ابن الأجود جُد.

الثالثة: أن امتثال هذا الأمر يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

(أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ) أي: أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إياه، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات.

(مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ) يعني يوم القيامة.

(لا بَيْعٌ فِيهِ) أي: لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمال تقدمونه، ولو جاء بملء الأرض ذهباً، فلا تنفعه صداقة أحد بل ولا نسابته.

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ).

وقال تعالى (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ).

فالبيع ههنا بمعنى الفدية، كما قال تعالى (فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ).

وقال تعالى (وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ).

وإنما قال سبحانه وتعالى (ولا بيع) لأن عادة الإنسان أن ينتفع بالشيء عن طريق البيع والشراء، فيشتري ما ينفعه، ويبيع ما يضره، لكن يوم القيامة ليس فيه بيع.

(وَلا خُلَّةٌ) أي: ولا صديق يدفع عنكم العذاب.

كما قال تعالى (الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين) وقال (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب) وقال: (ثم يَوْمَ القيامة يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً).

(وَلا شَفَاعَةٌ) أي: ولا شفيعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلا أن يأذن الله تعالى.

– قال الرازي: المقصود من الآية أن الإنسان يجيء وحده، ولا يكون معه شيء مما حصله في الدنيا، قال تعالى (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) وقال (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً).

(وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله، فلهذا قال تعالى (والكافرون هم الظالمون) وهذا من باب الحصر، أي: الذين ثبت لهم الظلم التام، كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) .

وجه الدلالة :

قوله (ولا شفاعة) أي : ولا شفاعة لأهل الكفر ، فلذلك أتبع قوله ذلك (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) فدل بذلك على أن معنى ذلك : حرمنا الكفار النصرة من الأخلاء والشفاعة من الأولياء والأقرباء ، ولم نكن لهم في فعلنا ذلك ظالمين ، بل الكافرون هم الظالمون .

ومن الأدلة على الشفاعة المنفية :

قوله تعالى (ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع) وقال تعالى (ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع)

فائدة :

قوله (فيما لا يقدر عليها إلا الله) نستفيد أن ما يقدر عليه الإنسان الشافع من التوسط لآخر في عمل أو زواج أو وظيفة لا بأس بها ، بل قال ﷺ (اشفعوا تؤجروا) .

القسم الثاني : الشفاعة المثبتة .

عرفها المصنف بقوله : هي التي تطلب من الله ، لأنه سبحانه مالكها ، كما قال تعالى (قل لله الشفاعة جميعاً) .

قوله (قل لله الشفاعة جميعاً) .

وقبل هذه الآية ﴿ أم اتخذوا من دون الله شفعاء قل أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون ﴾ .

(أم اتخذوا) أي بل اتخذوا، أي المشركين، والهمزة للإنكار من دون الله شفعاء، أي أتشفع لهم عند الله بزعمهم، كما قال تعالى: (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) .

(من دون الله) أي من دون إذنه وأمره ، والحال أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه .

(أولو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون) أي : أيشفعون ولو كانوا على هذه الصفة كما تشاهدونهم جمادات لا تقدر ولا تعلم أو أموات كذلك .

(قل لله الشفاعة جميعاً) أي هو مالكها كلها ، فليس لمن تدعونهم منها شيء .

والمعنى : أنه مالك الشفاعة كلها ، لا يستطيع أحد شفاعة إلا بإذنه ، ولا يستقل بها .

فدلت هذه الآية : أن الشفاعة بجميع أنواعها ملك لله فلا تُنال إلا بإذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له .

من فوائد الآية :

١- أن طلب الشفاعة من غير الله شرك أكبر .

٢- تعدد الشفاعة .

٣- إثبات البعث .

يشترط لهذه الشفاعة :

إذن الله .

رضا الله عن المشفوع .

وهذان هما شرطا الشفاعة المثبتة .

قال تعالى (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) .

(عنده) أي عند الله .

(إلا بإذنه) أي بإذن الله .

والمعنى : لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه .

يخبر تعالى في هذه الآية أنه لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه سبحانه وتعالى ، فمن شروط الشفاعة إذن الله تعالى للمشفوع .

من فوائد الآية :

١- إثبات الشفاعة ، لكن بشرط أن يأذن الله ، لأنه لولا ثبوتها لكان الاستثناء في قوله ﴿ إلا بإذنه ﴾ لغواً لا فائدة فيه .

٢- نفي الشفاعة عن المخلوق استقلالاً بدون إذن الله .

٣- الرد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء من دون الله من الملائكة والأنبياء والأصنام المصور على صور الصالحين وغيرهم ، وظنوا أنهم يشفعون عنده بغير إذنه ، فأنكر ذلك عليهم ، وبين عظيم ملكوته وكبريائه ، وأن أحداً لا يتمالك أن يتكلم يوم القيامة إلا إذا أذن له في الكلام ، كقوله : ﴿ لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ﴾ وقوله : ﴿ يوم يأت لا تكلم نفس إلا بإذنه ﴾ .

٤- إثبات الشفاعة لمن أذن الله له بها .

وقال تعالى (وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) .

يخبر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية الكريمة أن في السموات كثيراً من الملائكة ، ومع كثرتهم وعلو منزلتهم عند الله فإن شفاعتهم لا تغني أحداً إلا من بعد أن يأذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له .

فهذه الآية فيها شروط الشفاعة الصحيحة ، وهي :

١. رضى الله عن الشافع .

٢. رضى الله عن المشفوع له .

٣. إذن الله تعالى للشافع أن يشفع .

وهذه الشروط مجملة في الآية السابقة : (وكم من ملك في السموات ...) .

ومفصلة في قوله تعالى : (من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه) .

وقوله : (يومئذٍ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً) .

بين الله تعالى في هذه الآية أن الشفاعة لا تقع إلا بشرطين :

إذن الرب للشافع أن يشفع ، ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه .

الخلاصة :

الآيات التي جاء فيها نفي الشفاعة فهي تحمل على الشفاعة المنفية :

فمثلاً :

قوله تعالى (**وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئاً وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**) .

قال ابن كثير : (ولا يقبل منها شفاعة) يعني من الكافرين كما قال تعالى (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) . (ابن كثير) .

وقد أجمع المفسرون على أن المراد بالنفس في قوله تعالى (... لا تجزي نفس) النفس الكافرة، لا كل نفس، فهي من العام الذي أريد به الخاص.

قال القرطبي رحمه الله : وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله تعالى (وَاتَّقُوا يَوْماً لا تَجْزِي نَفْسٌ ...) النفس الكافرة ، لا كل نفس .

وقال الطبري رحمه الله : قوله تعالى (وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ) إنما هي لمن مات على كفره ، غير تائب إلى الله . انتهى .

فإذا كان المراد بالنفس هنا النفس الكافرة ، فالشفاعة المنفية في قوله (وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ) هي شفاعة الكفار .

وقوله تعالى (**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) .فالمراد – كما تقدم – بنفي الشفاعة في قوله (**وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ**) نفيها لأهل الكفر .

يقول ابن جرير رحمه الله : وهذه الآية مخرجها في الشفاعة عام والمراد بها خاص ، وإنما معناه : من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة لأهل الكفر بالله ... ثم قال : وأن قوله (**وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ**) إنما هو مراد به أهل الكفر، فلذلك أتبع قوله ذلك (وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ) فدل بذلك على أن معنى ذلك : حرمنا الكفار النصرة من الأخلاء والشفاعة من الأولياء والأقرباء ، ولم نكن لهم في فعلنا ذلك ظالمين ، بل الكافرون هم الظالمون .

وقوله تعالى (**مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ**).

فالمراد بالظالمين هنا : الكاملون في الظلم – وهم الكافرون – لقوله تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) .

قال ابن الجوزي : (**مَا لِلظَّالِمِينَ**) يعني الكافرين .

وقوله تعالى (فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ) .

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير : أي من كان متصفاً بمثل هذه الصفات ، فإنه لا تنفعه يوم القيامة شفاعة الشافعين ، لأن الشفاعة إنما تنجح إذا كان المحل قابلاً ، فأما من وافى الله كافراً يوم القيامة فإنه له النار لا محالة خالداً فيها .

م/ القاعدة الثالثة :

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الْمَلائِكَةَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَنْبِيَاءَ وَالصَّالِحِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الأَشْجَارَ وَالأَحْجَارَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، وَقَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُمْ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّهِ ﴾ [الأنفال: ٣٩]. وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٧]. وَدَلِيلُ الْمَلائِكَةِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى:﴿ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلآئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً... ﴾ الآية [آل عمران: ٨٠]. وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ... ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧]. وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ؛ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى ﴾ [النجم: ٩١، ٢٠].

وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. الحَدِيثَ

==========

هذه القاعدة التي ذكرها المصنف : ليبين أن الشرك صرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ، كائناً من كان بغض النظر عمن صرفت له العبادة سواء كان من الصالحين أو الأشجار أو الأحجار أو غير ذلك .

فالله لا يرضى الشرك بغض النظر عن المشرَك به سواء كان صالحاً أو حجراً أو شجراً أو غيرها .

فهذه القاعدة : فيها أن النبي ﷺ بعث والحال أن الناس كانوا يعبدون عبادات كثيرة ومتنوعة ، كما ذكرها المصنف ، فمنهم من يعبد الملائكة ، ومنهم من يعبد الأصنام ، ومنهم من يعبد الأحجار .. إلخ ، وقاتلهم النبي ﷺ ولم يفرق بين عبادة وأخرى .

- فلم يفرق بين من يعبد الملائكة . وبين من يعبد الأحجار .
- ولم يفرق بين من يعبد الصالحين . وبين من يعبد الأشجار .
- هل قال : إن من يعبد الملائكة ليس بشرك لأن لهم مكانة عند الله ؟ كلا .

بل اعتبر ﷺ كل ذلك شرك ، سوى بينهم فقاتلهم وحاربهم جميعاً ، لأنه شرك بالله تعالى .

والدليل على أن النبي ﷺ قاتلهم جميعاً قوله تعالى (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) .

(**وقاتلوهم**) أي من عبد غير الله كائناً من كان .

(**حتى لا تكون فتنة**) أي شرك .

(**ويكون الدين كله لله**) أي يخلص التوحيد لله ، ليس فيه شرك .

ثم ذكر المصنف بعض المعبودات التي كانت تعبد ودليل كل معبود ، والمؤلف ذكر المشهور منها.

وَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ :

قَوْلُهُ تَعَالَى (لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ) .

قال ابن كثير : يقول تعالى منبهاً خلقه على قدرته العظيمة (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر) أي أنه خلق الليل بظلامه والنهار بضيائه وهما متعاقبان لا يفتران .

(**والشمس والقمر**) والشمس ونورها وإشراقها والقمر وضياءه وتقدير منازله، نبه تعالى على أنهما مخلوقان عبدان من عبيده تحت قهره.

(**لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون**) أي ولا تشركوا به ، فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره ، فإنه لا يغفر أن يشرك به .

وَدَلِيلُ الْمَلائِكَة :

قَوْلُهُ تَعَالَى (**وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً...**) .

قال ابن كثير : (أي ولا يأمركم [أي النبي المرسل] بعبادة أحد غير الله ، لا نبي مرسل ولا ملك مقرب ، أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ، أي لا يفعل ذلك إلا من دعا إلى عبادة غير الله ، ومن دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر ، والأنبياء إنما يأمرون بالإيمان وهو عبادة الله وحده لا شريك له .

وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ :

قَوْلُهُ تَعَالَى (**وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**) .

قال السعدي : هذا توبيخ للنصارى ، الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، فيقول الله هذا الكلام لعيسى : فيتبرأ منه عيسى ويقول (**سبحانك**) عن هذا الكلام القبيح ، وعما لا يليق بك .

(**ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق**) أي : ما ينبغي لي ، ولا يليق أن أقول شيئاً ، ليس من أوصافي ، ولا من حقوقي ، فإنه ليس أحد من المخلوقين ، لا الملائكة المقربون ، ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم ، له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية ، وإنما الجميع عباد ، مدبرون ، وخلق مسخرون ، وفقراء عاجزون .

(**إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك**) فأنت أعلم بما صدر مني .

(**إنك أنت علام الغيوب**) وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه .

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ :

قَوْلُهُ تَعَالَى (أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ...) .

معنى الآية : يخبر تعالى أن هؤلاء الذين يعبدهم المشركون مع الله من الملائكة والصالحين ، هم أنفسهم يطلبون التقرب إلى الله بالطاعة والعبادة ويمتثلون أوامره رجاء رحمته ويجتنبون نواهيه خوفاً من عذابه .

ففي الآية : بطلان عبادة المشركين لغير الله ، بكوْن المعبودين أنفسهم يطلبون القربى من الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ :

قَوْلُهُ تَعَالَى (**أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى**) .

[أفرأيتم] أخبروني ، **[اللات]** اسم لرجل صالح كان يلت السويق للحاج فلما مات عكفوا على قبره وبنوا عليه أستارا ، **[العزى]** شجرة بين مكة والطائف عليها بناء يعبدها قريش ، **[مناة]** بناء بين مكة والمدينة .

معنى الآية : ينكر تعالى على المشركين عبادة الأوثان عامة وفي مقدمتها تلك الأوثان الثلاثة وهي اللات في الطائف ، والعزى ومناة ، فيتحداهم في هذه الأصنام هل تنفع شيئاً فتدفع الضر وتجلب النفع ، أم أنها مجرد أسماء سموها ما أنزل الله بها من سلطان.

وَحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﷺ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وَلِلمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيُنَوِّطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالَ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. الحَدِيثَ

(**عن أبي واقد**) اسمه الحارث بن عوف ، صحابي مشهور ، مات عام ٦٨ .

(**حنين**) أي غزوة حنين .

(**ونحن حدثاء عهد بكفر**) أي قريبون عهدٍ بكفر . [ففيه دليل على أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل ذلك] .

(**يعكفون عندها**) يقيمون عندها للتبرك ، والعكوف هو الإقامة على الشيء في المكان ومنه قول الخليل (ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون) .

(**ينوطون بها أسلحتهم**) أي يعلقونها عليها للبركة .

(**اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط**) أي سدرة نعلق أسلحتنا عليها تبركاً بها ، ونعكف حواليها ، ظنّوا أن هذا أمر محبوب عند الله فقصدوا التقرب إلى الله بذلك وإلا فهم أجل قدراً من أن يقصدوا مخالفة النبي ﷺ .

(**فقال الله أكبر**) استعظاماً وتعجباً لا فرحاً .

(**إنها السُنن**) بضم السين ، أي الطرق .

(**لتركبن سنن من كان قبلكم**) أي لتفعلنّ مثل فعلهم ولتقولنّ مثل قولهم ، وهذه الجملة المراد منها التحذير لا الإقرار .

فدل الحديث على أن اتخاذ الأشجار للتبرك والعكوف عندها شرك، فيدخل فيه كل ما يتبرك به من شجر أو حجر أو قبر أو غير ذلك.

من فوائد الحديث :

١. أن التبرك بالأشجار شرك ، ومثلها الأحجار وغيرها .
٢. وفيه أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادات الباطلة.
٣. فيه تكبير الله وتنزيهه عند التعجب أو ذكر الشرك .
٤. وفيه علم من أعلام النبوة ، من حيث أنه وقع كما أخبر النبي ﷺ .
٥. النهي عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه إلا ما دل الدليل على أنه من شريعة محمد ﷺ .
٦. أن نفي التبرك بالأحجار ونحوها من معنى (لا إله إلا الله) فإن (لا إله إلا الله) تنفي كل إله سوى الله .
٧. أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء ، ولهذا جعل طلبهم كطلب بني إسرائيل ولم يلتفت إلى كونهم سمّوها ذات أنواط .
٨. أن الشرك لا بد أن يقع في هذه الأمة خلافاً لمن ادعى خلاف ذلك .
٩. وفيه الغضب عند التعظيم .
١٠. استحباب إظهار ما يدفع الغيبة حيث قال : (ونحن حدثاء عهدٍ بكفر) .
١١. صعوبة انتزاع العادات من نفوس البشر .
١٢. يعذر الجاهل بجهله إذا ارتدع بعد العلم .
١٣. وجوب سد الذرائع .
١٤. جواز الحلف على الفتيا .
١٥. جواز الحلف بدون استحلاف لمصلحة .

م/ القاعدة الرابعة:

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانَنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنَ الأَوَّلِينَ، لأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ، وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانَنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّة؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

==========

أراد المصنف أن يبين أن مشركي هذا الزمان أعظم شركاً من الأولين .

وجه ذلك : أن الله أخبر عن المشركين المتقدمين أنهم يشركون في الرخاء وإذا أصابتهم الضراء والشدة فإنهم يوحدون .

واستدل المصنف – رحمه الله بقوله تعالى (فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون) .

(**فَإِذا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ**) وَخَافُوا الْغَرَقَ .

(**دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**) وَتَرَكُوا الْأَصْنَامَ .

(**فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إذا هُمْ يُشْرِكُونَ**) هَذَا إِخْبَارٌ عَنْ عِنَادِهِمْ وَأَنَّهُمْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ يُقِرُّونَ أَنَّ الْقَادِرَ عَلَى كَشْفِهَا هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَحْدَهُ، فَإِذَا زَالَتْ عَادُوا إِلَى كُفْرِهِمْ، قَالَ عِكْرِمَةُ: كَانَ أَهْلُ الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا رَكِبُوا الْبَحْرَ حَمَلُوا مَعَهُمُ الْأَصْنَامَ فَإِذَا اشْتَدَّتْ بِهِمُ الرِّيحُ أَلْقَوْهَا فِي البحر وقالوا: يا رب يا رب. (تفسير البغوي)

ومن الأدلة أيضاً :

قوله تعالى (**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ** ...) .

(**هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**) أي: هو سبحانه الذي يسيركم بقدرته ورحمته في البر والبحر، بواسطة ما وهبكم من قدرة على السير، أو ما سخر لكم من دواب وسفن وغيرهما مما تستعملونه في سفركم، وكل ذلك من أجل مصلحتكم ومنفعتكم.

(**حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ**) أي: السفن البحرية.

(**وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا**) موافقة لما يهوونه، من غير انزعاج ولا مشقة.

-المراد بالريح الطيبة: الريح المناسبة لسير السفن، والموافقة لاتجاهها.

(**جَاءتْهَا**) أي: تلك السفن.

(**رِيحٌ عَاصِفٌ**) أي: شديدة.

(**وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ**) أي: اغتلم البحر عليهم.

(**وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ**) أي: هلكوا، أي: عرفوا أنه الهلاك، فانقطع حينئذ تعلقهم بالمخلوقين، وعرفوا أنه لا ينجيهم من هذه الشدة إلا الله وحده، فدَعَوُه مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

-أُحِيطَ بِهِمْ، أي: أحاط بهم البلاء من كل ناحية. يقال لمن وقع في بلية: قد أحيط به.

(**دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**) بيان لما قالوه بعد أن داهمتهم الرياح العاصفة، والأمواج العالية وبعد أن أيقنوا أنهم على حافة الموت.

أي في تلك الساعات العصيبة، واللحظات الحرجة، توجهوا إلى الله وحده قائلين: نقسم لك يا ربنا، ويا من لا يعجزك شيء، لئن أنجيتنا من تلك الأهوال التي نحن فيها، لنكونن من الشاكرين لك، المطيعين لأمرك، المتبعين لشرعك.

أي: لا يدعون معه صنماً ولا وثناً، بل يفردونه بالدعاء والابتهال.

(لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ) أي: هذه الحالة.

(لَنَكُونَنّ مِنَ الشَّاكِرِينَ) أي: لا نشرك بك أحداً، ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا.

(فَلَمَّا أَنجَاهُم) أي: من تلك المصيبة والأزمة.

(إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ) أي: كأن لم يكن من ذلك شيء.

كما قال تعالى (كأن لم يدعنا إلى ضر مسه).

أي: فحين أنجاهم الله تعالى بفضله ورحمته من هذا الكرب العظيم الذي كانوا فيه، إذا هم يسعون في الأرض فساداً. ويرتكبون البغي الفاضح الذي لا يخفى قبحه على أحد.

وقيد البغي بكونه بغير الحق، لأنه لا يكون إلا كذلك، إذا البغي معناه: تجاوز الحق، يقال: بغى الجرح إذا تجاوز حده في الفساد.

فقوله: بِغَيْرِ الْحَقّ تأكيد لما يفيده البغي من التعدي والظلم، فهو بغى ظاهر سافر لا يخفى قبحه على أحد.

ومن الأدلة أيضاً :

قوله تعالى (وما بكم من نعمة فمن الله ثم إذا مسكم الضر فإليه تجئرون ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريق منكم بربهم يشركون) .

وقال تعالى (إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي البَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلاَّ إِيَّاه) .

وقال تعالى (قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُون {إلى قوله }مَا تُشْرِكُونَ) .

وقال تعالى (وَإِذَا مَسَّ الإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيباً إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيهِ مِن قَبْلُ) .

فهؤلاء المتقدمين يشركون في الرخاء وإذا أصابتهم الضراء والشدة وحدوا الله تعالى ، وأما مشركوا هذه الأزمنة فإنهم إذا مسهم الضر فزعوا إلى الحسين أو إلى البدوي أو إلى الموتى ، وهذا لا شك أنه أعظم من شرك الأولين .

فالأولون يشركون في الرخاء ويرجعون في الضراء .

قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله :

فالأوّلون يُشركون في الرخاء، يدعون الأصنام والأحجار والأشجار . أما إذا وقعوا في شدّة وأشرفوا على الهلاك فإنهم لا يدعون صنمًا ولا شجرًا ولا حجرًا ولا أي مخلوق، وإنما يدعون الله وحده ـ سبحانه وتعالى ـ فإذا كان لا يخلِّص من الشدائد إلاّ الله ـ جلّ وعلا ـ فكيف يُدعى غيرُه في الرخاء .

أما مشركوا هذا الزمان يعني : المتأخّرين الذين حدث فيهم الشرك من هذه الأمّة المحمديّة فإنّ شركهم دائمٌ في الرخاء والشدّة، لا يُخلصون لله ولا في حالة الشدّة، بل كلما اشتدّ بهم الأمر اشتدّ شركهم ونداؤهم للحسن والحسين وعبد القادر والرِّفاعي وغير ذلك، هذا شيء معروف، ويُذكر عنهم العجائب في البحار، أنهم إذا اشتدّ بهم الأمر صاروا يهتفون بأسماء الأولياء والصالحين ويستغيثون بهم من دون الله ـ عزّ وجل .

فائدة :

قال الشيخ ابن عثيمين : فانظروا يا معاشر المسلمين إلى صدق ما قاله الإمام محمد بن عبد الوهاب؛ فهؤلاء الصوفية التيجانية يستغيثون بالطاغية: أحمد التيجاني– لا رحم الله فيه مغرز إبرة– ويدعونه بكشف الكروب من دون الله علاّم الغيوب!!

فماذا تركوا لله ربّهم؛ قولوا لي بربكم؟!

مشركو قريش ومن قبلهم كانوا يشركون بالله في الرّخاء؛ فإذا اشتد بهم البأس أخلصوا الدعاء والاستغاثة لله!

أما مشركو زماننا فيشركون بالله وقت الشدّة والحاجة إليه؛ وكذلك يشركون به في الرّخاء والعافية!

قال تعالى (ومن أَضلّ مِمّن يَدْعُو مِن دُون اللهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لهُ إِلَىٰ يَومِ الْقِيَامةِ وَهُمْ عَن دعَائِهِمْ غَافِلُون) .

فلا أضل منهم ورب الكعبة.!

فائدة

ذكر المصنف –رحمه الله– أمر آخر يكون مشركي زماننا أغلظ من الأولين :

فقال : أنَّ الأَوَّلِينَ يَدْعُونَ مَعَ اللهِ أُنَاساً مُقَرَّبِينَ عِنْدَ اللهِ إِمَّا نبيّاً، وَإِمَّا وليّاً، وَإِمَّا مَلائِكَةً، أَوْ يَدْعُونَ أَحْجَاراً وأَشْجَاراً مُطِيعةً للهِ تعالى ليْسَت بعَاصِيَةٍ، وَأَهْلُ زَمانِنَا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ أُنَاساً مِنْ أَفْسَقِ النَّاسِ، وَالَّذِينَ يَدْعُونَهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَحْكُونَ عَنْهُمُ الفُجُورَ مِنَ الزِّنَا وَالسَّرِقَةِ وَتَرْكِ الصَّلاةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَالَّذِي يَعْتَقِدُ فِي الصَّالِحِ؛ والَّذي لا يَعْصي – مِثْلِ الخَشَبِ وَالحَجَرِ – أَهْوَنُ مِمَّنْ يَعْتَقِدُ فِيمَنْ يُشاهِدُ فِسْقَهُ وفَسَادَهُ ويَشْهَدُ بِهِ.

أخوكم

سليمان بن محمد اللهيميد

تفضل بزيارة موقعي رياض المتقين

www.almotaqeen.net

القناة العلمية على التلجرام

https://t.me/aloheemeed